الحادى عشر

صاحبها ومحررها

سلامه موسى

المجلد السابع

المجلة الجديدة

العدد العاشر

من

السنة السادسة

نوفمبر ١٩٣٧

سير الحوادث

الوزارة الوفدية

فى الخامس عشر من الشهر الماضى « أكتوبر » شرعت الوزارة الوفدية فى تنفيذ الغاء الامتيازات فانتقل بذلك اختصاص القنصليات الى المحاكم المختلطة . ولم يبق للقنصليات سوى النظر فى مسائل الاحوال الشخصية التى ستنظم قريبا . وتحال أيضا الى المحاكم المختلطة

وقد نجحت الوزارة أيضا فى مشروع التبرع للدفاع . وينتظر أن تبلغ التبرعات نحو مليون ونصف مليون جنيه ، وهذا وحده يدل على مكانة الوزارة من الامة

ولكن المعارضين ملأوا الدنيا ضوضاء فى الشهرين الماضيين وحرضوا اقلية صغيرة من الطلبة على الاضراب وعلى الهتافات الوقحة التى تدل على الخسة والنذالة قبل أن تدل على شىء آخر. ولا يمكن المعارضين أن يسقطوا الوزارة الا اذا تآمروا على الوثوب الثورى وحكم البلاد بلا دستور. وفى هذه الحال يجب على الامة أن تحمى دستورها حماية فعلية . والا لو جاز لمثل اسماعيل صدقى باشا ان يصل الى رياسة الوزارة على الرغم من مقت الامة له لما كان لاستقلالنا أى معنى او مغزى . ومن العجب أنه فى الوقت الذى قامت فيه الوزارة النحاسية باعظم ما يمكن أن تقوم به وزارة فى العالم اذ حققت الاستقلال والغت الامتيازات — فى هذا الوقت ينعب المعارضون نعيب الشقاق والاستبداد يطلبون اسقاطها !

The Aga Khan Fund
for Islamic Art and Architecture

Harvard College Library

OC25065.750

521700

الحادى عشر

صاحبها ومحررها
سلامه موسى

المجلد السابع

المجلة الجديدة

العدد العاشر
من
السنة السادسة

نوفمبر ١٩٣٧

سير الحوادث

الوزارة الوفدية

فى الخامس عشر من الشهر الماضى « أكتوبر » شرعت الوزارة الوفدية فى تنفيذ الغاء الامتيازات فانتقل بذلك اختصاص القنصليات الى المحاكم المختلطة . ولم يبق للقنصليات سوى النظر فى مسائل الاحوال الشخصية التى ستنظم قريبا . وتحال أيضا الى المحاكم المختلطة

وقد نجحت الوزارة أيضا فى مشروع التبرع للدفاع . وينتظر أن تبلغ التبرعات نحو مليون ونصف مليون جنيه ، وهذا وحده يدل على مكانة الوزارة من الامة

ولكن المعارضين ملأوا الدنيا ضوضاء فى الشهرين الماضيين وحرضوا اقلية صغيرة من الطلبة على الاضراب وعلى الهتافات الوقحة التى تدل على الخسة والنذالة قبل أن تدل على شىء آخر . ولا يمكن المعارضين أن يسقطوا الوزارة الا اذا تآمروا على الوثوب الثورى وحكم البلاد بلا دستور . وفى هذه الحال يجب على الامة أن تحمى دستورها حماية فعلية . والا لو جاز لمثل اسماعيل صدقى باشا ان يصل الى رياسة الوزارة على الرغم من مقت الامة له لما كان لاستقلالنا أى معنى او مغزى . ومن العجب أنه فى الوقت الذى قامت فيه الوزارة النحاسية باعظم ما يمكن أن تقوم به وزارة فى العالم اذ حققت الاستقلال والغت الامتيازات — فى هذا الوقت ينعب المعارضون نعيب الشقاق والاستبداد ويطلبون اسقاطها !

خلاصة الاخبار الخارجية

١ — لا تزال الحرب الصينية اليابانية قائمة . والجيش اليابانى منتصر على وجه عام ولكنه بطيء فى سيره . واليابانيون يحتمون لعقد الصلح اربعة شروط . هى امتلاكهم لما احتلوا من الارض الصينية واعتراف الصين بانفصال منغوليا واستقلالها . وتعهد الحكومة الصينية بالكف عن تعليم الطيران الحربى . وانفصالها من عصبة الامم

٢ — عقد فى بروكسل مؤتمر الدول التسع التى دنت سنة ٩٢٣ قد تعهدت بسلامة الصين . واليابان احدى هذه الدول . ولكنها رفضت حضور هذا المؤتمر الذى سوف يقرر — فى الاغلب — المقاطعة الاقتصادية لليابان لاعتدائها الحاضر على الصين

٣ — لا تزال الحرب الاهلية الاسبانية قائمة . وقد زادت قوة الوطنيين الثائرين واصبح انتصارهم مرجحا اذ لم يبق فى يد الحكوميين شى من الاقاليم الشمالية سوى الجزء الصغير الذى يصل فرنسا واسبانيا . وقد عقدت لجنة عدم التدخل من الدول الكبرى . والمظنون انها ستقرر الاعتراف بحق المحاربين لكل من الوطنيين والحكوميين بشرط سحب المتطوعين من كليهما

٣ — تدعو الحال فى فلسطين الى التشاؤم . فان زعيم الحركة الوطنية العربية الحاج امين الحسينى قد ترك فلسطين الى لبنان . وزاد الانجليز القيود لحركات الوطنيين وزادوا القوانين الاستثنائية للقمع . ومما يدعو الى التفكير والاسف معا ان اليهود فى تقدم اقتصادى لا ينقطع

انقلاب فى الاقتصاديات العالمية

يتقهقر القطن فى العالم تقهقرا يكاد يكون غير منتظم . فان الامم الثلاث التى كانت تستورده ايطاليا والمانيا واليابان قد اقبلن على انشاء مصانع الريون بل اندفعن فى انشائها اندفاعا عظيما . وجميع الاقطار الزراعية تقبل على غرس الاشجار الخشبية لهذا السبب . حتى ولايات القطن الفائق مثل جورجيا «فى الولايات المتحدة» قد اخذت تعنى بغرس الاشجار وايجاد الغابات التى يستخدم خشبها فى صنع الورق والريون . ولا يمكن ان ينتظر اى تحسن فى اثمان القطن ما دامت هذه الحال قائمة بل مادامت آخذه فى التفاقم . الا اذا فرضنا وقوع حرب كبرى تحتاج الى استهلاك مقادير كبيرة من هذا المحصول الذى يكثر عرضه ويقل طلبه

انقلاب اخر

وثم انقلاب اخر يبدو الان صغيراً كما هو الشأن فى كل شىء فى اوله .. فقد انتشرت الزراعة بلا أرض فى الولايات المتحدة. وذلك بانشاء احواض مزودة بسوائل مغذية تحوى

الزراعة بلا ارض

املاح الاسمدة المختلفة . وقد وجد ان المحصول هنا يزيد اربعين ضعفا على محصول الارض التى بلغت العناية بها اعظم حد . وما يزرع الان هو الخضراوات التى تباع للبقالين فى المدن الكبرى

العقلية الاجتماعية فى تركيا

يتجه الزعيم اتاتورك نحو العقلية الاجتماعية . فانه يهتم بنشأة المرأة على الحرية كاهتمامه بترقية الجيش . وهو يحاول تعميم البيئة الصناعية كما يحاول ايجاد الطائرات الحربية . ويرى القارىء هنا صورة اعلان تركى عن «يوم الطفل» للعناية بالطفولة بتعايم الامهات وارشادهن عن غذاء الاطفال ولباسهم وعن الحمل والرضاعة وايجاد مستشفيات الولادة ورياض الاطفال ومراكز المبرات الطفلية . وفى انقره شارع يسمى شارع الطفل

اعلان تركى عن يوم الأطفال

إلى القراء

أرسلنا إلى المشتركين الذين أدوا قيمة الاشتراك عن سنة ١٩٣٧ كتابين هما: اختبارات طالب فى أوربا والثورة العرابية . فنرجو جميع الذين سددوا الاشتراك ولم يصل اليهم هاتان الهديتان ان يبلغونا . كما نرجو غيرهم ان يسددوا الاشتراك لكى نرسلهما اليهم

أحمد عرابى

تعليم اللغة العربية

كثر الكلام هذه الأيام عن اللغة العربية وعن الطرق المعوجة فى تعليمها . ويسرنا كل السرور أن الذين يعالجون هذا الموضوع قد تنبهوا جميعهم الى محور الداء وهو ان مدارسنا لا تعلم اللغة العربية وانما تعلم شيئا آخر يكاد يختلف من اللغة ولا يتصل بها الا بأوهى الاسباب ومن ناحية واحدة فقط نعنى تعليم قواعدها من نحو وصرف وبيان

ونحن نؤكد هنا ان الاثنين يختلفان . فان من يتعلم اللغة العربية يختلف ممن يتعلم النحو والصرف والبيان لان الاول يتعلم لغة والثانى يتعلم قواعد . وهذا الذى نقوله قد سبق لابن خلدون أن قاله قبل ثمانية قرون ؛ ولكننا للاسف ورثنا تعليم اللغة عن الازهر فاعتمدنا فيه على تعليم القواعد وهذا هو السبب الاكبر للجهل العام بين خريجى مدارسنا للغة العربية

فان اللغة الفاظ وجمل لا نستطيع أن نعرفها الا بالممارسة . وحركات اللسان حين ينطق باللفظ أو الجملة لا تختلف من حركات الذراع فى السباحة . وكما انه لا يمكن انسانا أن يتعلم السباحة باستظهار القواعد عنها كذلك لا يمكن الصبي أو الشاب المصرى أن يتعلم اللغة العربية باستظهار القواعد الخاصة بها من كتاب . بل نستطيع أن نزيد فى الشرح ونقول أن القواعد التى تتعلق بالسباحة هى فى لبابها معلومات فسيولوجية وتشريحية لا شأن لها فى تعلم هذين الفنين . وكذلك قواعد النحو والصرف والبيان هى معلومات فلسفية سيكلوجية لا شأن لها فى تعلم الاداء العربى

ونحن نعلم الصبيان السباحة بطريقة واحدة هى التدريب . وكذلك لا نستطيع أن نعلم أحدا كتابة اللغة العربية الا بالتدريب . لان الاداء هو أيضا حركات عضلية فى اللسان والحنجرة تحتاج لكى نمهر فيها الى مرانة كتلك المرانة التى نحتاج اليها فى السباحة سواء

واذن ليس أمامنا من سبيل لتعليم اللغة غير التدرب بأن نجعل صبياننا يقرأون أحسن الكتب

ويتحدثون أسمى الحديث ويكتبون كثيراً فى شتى الموضوعات التى تضطرهم الى اختيار التعابير المختلفة لتأدية المعانى المختلفة . وقد ضاعت لغتنا فى المدارس لان الذين يتولون التعليم فيها نشأوا على أن يحسبوا للقواعد اكبر قيمة وعلى أن يعتقدوا أن الانشاء لا يعنى غير الزخارف التى تقول بها قواعد البيان والبديع . وهذا سخف لا حد له وهو أيضاً تعطيل لمواهب شبابنا وتقصير بهم عن الوصول الى الاداء

والمسئول عن هذه الحالة الاسيفة هم معلمو اللغة العربية الذين قضوا أحسن أعمارهم فى دار العلوم يتعلمون القواعد ويرصدون لدرسها معظم وقتهم . وحسبنا أن نضرب مثلا بين معلمين أحدهما يعلم الانجليزية والآخر يعلم العربية . فان الاول لا يكاد يعرف من القواعد غير القليل الذى يقارب العدم وهو يرصد كل وقته لتدريب الصبيان أو الشبان على الكلام والكتابة والقراءة . ولكن الثانى يعكس هذه الطريقة فيرصد كل وقته تقريبا لدرس القواعد ولا يكاد يدرب تلاميذه على الكلام والكتابة والقراءة

ولنفرض أن كلا منهما طلب الى تلاميذه أن يكتب عن « دودة » القطن فأن المعلم الانجليزى يناقش تلاميذه عن حياة هذه الحشرة ويقدم لهم صورتها وهى بيضة ثم يرقة ثم عذراء فى فيلجة ثم فراشة . ويصف تاريخها الطبيعى ومقدار التلف الذى تحدثه مع بعض الارقام عن خسارة مصر فى القطن منها ويشرح الطرق للتخلص منها . أما معلم اللغة العربية فيجهل هذا التاريخ الطبيعى لهذه الحشرة وقد يظن أنها « دودة » حقيقية فيوقع التلاميذ فى خطأ بيولوجى يحتاجون الى تصحيحه بعد ذلك . ثم يطلب من تلاميذه زخارف بيانية وبلاغيه لاقيمة لها بتاتاً فى التعبير الحسن المفيد نعنى التعبير الذى يحتاج اليه التلميذ فى حياته المستقبلة

وخلاصة القول أن اللغة العربية متأخرة لسبب واحد هو أن معلميها لا يعلمونها بل يعلمون شيئا آخر يسمى قواعد اللغة والصرف والبلاغة. والعلاج الوحيد لهذه الحال هو تعليم اللغة بالذات أى تعويد التلاميذ قراءتها وكتابتها والتحدث بها كما هو الشأن فى تعليم اللغة الانجليزية

ويمكن وزارة المعارف أن تقوم بتجربة فى هذا الموضوع . فانها يمكنها مثلا أن تخص إحدى المدارس الابتدائية وإحدى المدارس الثانوية بمعلمين من خريجى معهد التربية لكى يعلموا اللغة العربية

فى هاتين المدرستين ثم تنظر وتقابل بين نتائجها ونتـائج مدارس القطر عامة . فاذا وجدت فرقا محسوسا أمكننا أن تنقح المنهج الذى تتبعه دار العلوم حتى يقارب منهج كليات الجامعة ومعهد التربية أو يتساوى بهما لان العلة فى تأخر اللغة العربية ليست فى التلاميذ والطلبة وانما هى فى معلميها خريجى دار العلوم الذين لايعرفون أن تعليم القواعد يختلف من تعليم اللغة . وهم معذورون فى ذلك لانهم نشأوا نشأة أزهرية وساروا على المنهج الازهرى للدرس . وهو منهج لم يخرج فى أصوله عما رسم له قبل ألف عام

ويقيننا أن كل قارىء يعرف قيمة الاتقان للغة العربية التى هى وسيلة الاداء أى وسيلة التفكير . فان الشاب المصرى الذى يعجز عن الاداء إنما هو يعجز فى الحقيقة عن التفكير . أى أن ذكاءه ينقص . ونحن نحب من جميع الذين يشتغلون بموضوع تعليم اللغة العربية أن يدرسوا « السيكلوجية السلوكية » التى يقول بها واطسون الامريكى . فان هذا العالم يعتقد أن التفكير هو « كلام صامت » وهو يثبت هذه النظرية أو — ان شئت — هذا الفرض ببراهين مختلفة ليس هنا محل شرحها . فاذا صح نظره فان قيمة الاتقان للغة التى نتحدث او نكتب بها تزداد لاننا عندئذ نستطيع أن نقول أننا لن نفكر التفكير الحسن ولن نكون أذكياء إلا اذا كنا نتقن لغتنا تمام الاتقان . والانسان الذكى هو لهذا السبب ذلك العارف بألفاظ اللغة وتعابيرها الدقيقة التى تميز بين المعانى بل بين ظلالها

فاذا شئنا أن نعلم أبناءنا التفكير الذكى فاننا يجب أن نعلمهم الاداء بالالفاظ والعبارات الدقيقة التى لا تحتمل لبساً . لان اللبس فى الاداء هو فى صميمه لبس فى التفكير ونقص فى الذكاء . ويمكننا أن نزيد على ذلك وأن نقول أن اللغة الدقيقة التى تتسع للعبارات المختلفة لتأدية المعانى ثم ظلالها تزيد ذكاء الامة التى تتكلم وتكتب بها . وإذا كان ذكاء المتوحشين ناقصاً فان معظم هذا النقص يرجع الى أن لغاتهم قليلة التعابير والالفاظ التى تؤدى الدلالة وتعبر عن المغزى . وقد عرفنا نحن الذين نحترف الكتابة أن الفكرة لاتتضح فى أذهاننا إلا اذا عبرنا عنها بالالفاظ الدقيقة التى نحتاج اليها

فيجب أن يكون من هم كل مصرى تعليم اللغة العربية لابناء الامة بأقرب مايمكن الى درجة الاتقان . ولكن الواقع أن اللغة العربية لاتعلم على الاصول الحديثة فى تعليم اللغات . فقد قلنا أن

الذى يعلم فى مدارسنا هو قواعد النحو والصرف والبلاغة وهذا موضوع يختلف من موضوع اللغة.

ونحن نجد تأييدا لهذا القول الذى كررناه عشرات المرات فيما يكتب الان بعض المعلمين الذين زالت عن أعينهم الغشاوة. فهذا الاستاذ مصطفى محمد سلام يقول:

«فكيف لا يضعف التلاميذ وقد أصبحت قواعد اللغة شراً امتد خطره حتى ابتلع وقت الدرس والتلميذ معاً، وأصبحت محل عنايتهما تستنفد من التلميذ جهده فى استيعاب المنهج، وتسلب وقته فى استذكارها بالمنزل؛ وتجهد عقله فى تفهمها بالمدرسة، وذلك راجع الى أن واضعى المناهج قدجعلوها شبحاً يخشاه صورة مصغرة شاملة لكل أبواب النحو غير مراعين حاجة التلاميذ اليها ولا مميزين بين النافع منها؛ و بين مالا حاجة للتلاميذ به؛ ومالا استعمال له التلاميذفى الامتحان ومتى انقلبت الاوضاع فقد ضاع الغرض و بعدت النتائج»

وهو يقترح بعد ذلك:

(١) أن تحذف من قواعد النحو جميع الابواب التى لا تقوى عليها مدارك التلاميذ أو لا تعود عليهم بفائدة تذكر

(٢) أن يحذف من المدارس الثانوية جميع قواعد البلاغة على أن يكتفى بتدريسها للمدارس المتخصصة

(٣) أن تعنى الوزارة بايجاد كتب للمطالعة مشكولة

(٤) أن يذهب منهج الأدب مع زيادة العناية باختيار القطع الادبية

ونحن نؤيد هذا الاستاذ فى كل مقترحاته. ولكننا نلاحظ أن اللغة لم تخترع لكى يكتب بها الكاتبون فى الادب فقط. بل يجب أن تحوى كتب المطالعة موضوعات مختلفةعن السماء والارض والحيوان والنبات والجو والبحر وأن تحوى موضوعات كيميائية وفيزيائية وأن يشرح معلم الانشاء أجزاء الأتومبيل والراديوفون وصناعة الفتوغرافية وما الى ذلك مما هو بعض هذه الحضارة التى يعيش فيها التلميذ والتى هو مطالب بتفهمها والتعبير عن كلياتها وجزئياتها

ونعود الى واطسون. فنقول أن المهارة فى التعبير هى فى حقيقتها مهارة فى تحريك عضلات اللسان والحنجرة. فهى من هذه الناحية لا تختلف من المهارة فى السباحة. ولو أن معلما اراد ان يعلمنا

السباحة ثم فرض علينا قواعدها فقال مثلا :

القاعدة الاولى : يجب لكى نسبح أن نحرك العضلة التى تلى الكتف ثم تلك الاخرى التى تلى الركبة

القاعدة الثانية : يجب أن نرفع الرأس ثم نخفض القدمين . الخ

لو قال لنا ذلك وقعد يعلمنا هذه الحركات من كتاب لما تعلمنا السباحة ولو قضينا فيها عمرنا كله

ولكن هذه القواعد على سخافتها الواضحة هى التى نطالب تلاميذنا بتعلمها عندما نعلمهم قواعد النحو والصرف والبلاغة ، فان التلميذ الذى نريده على تعلم العربية لن يتعلمها بهذه القواعد كما أن الراغب فى السباحة لن يتعلمها بالقواعد . وانما الطريقة المجدية أن نلقى به فى الماء ونصحح أغلاطه فلا يزال يمارس الامواج حتى يعرف كيف يعالجها وحتى تتمرن عضلاته على مكافحتها

وكذلك متعلم العربية يجب أن نغمسه فى الكلام والحديث والانشاء والخطابة والمناقشة والكتابة حتى يمرن عضلات لسانه وحنجرته على هذه الاشياء ونقنع نحن بالتصحيح . وبذلك تصبح اللغة ملكة من ملكاته التى لا ينساها كما لا ينسى السابح ملكة السباحة

ولكن هل المعلم الحاضر الذى تخرجه دار العلوم قادر على أن يحدث تلاميذه عن الاتومبيل والراديفون ونمو النبات وصناعة الريون وسائر الأشياء التى تحيط بنا فى حضارتنا الراهنة والتى يجب على التلميذ الذكى أن يعرفها ويعبر عنها ؟

الجواب الصريح انه غير قادر على ذلك . ولكنه قادر على أن يعلم التلاميذ قواعد التصغير التى تقول أن محطة تصغر على محيطة أو مثل هذه السخافة . وهو قادر على أن يبين لهم الفرق الهائل بين الاستعارة والمجاز وهو فرق يمكنهم أن يعيشوا أحسن العيش وأفضله بدون أن يعرفوه

والخلاصة أن اللغة العربية متأخرة فى مدارسنا وشبابنا لا يحسن التعبير بها وهو قليل الذكاء لضعفه فى هذا التعبير لسبب واحد هو أن المعلمين الذين تخرجهم دار العلوم لا يدرسون الحضارة القائمة ولا الأدب الحديث ولا يعرفون لغة أجنبية راقية وقد قضوا اعمارهم فى تعلم القواعد للنحو والصرف والبيان

العلاجات النفسية

قلما يخلو انسان من الأمراض النفسية التى تنتج إما من كبت بعض الغرائز فى اللاشعور أو من تكوين عقدة نفسية فى أيام الطفولة ، والعقدة مجموعة أفكار أو ذكريات مصطبغة بصبغة انفعالية شديدة ومكبوتة أيضا فى اللاشعور . ومع انها مكبوتة تظل تؤثر فى شعورنا وحياتنا من آن لآخر

فمن هذا مثال القسيس الايرلندى الذى خرج من منزله فى لندن صبيحة يوم من الايام وبدلا من أن يذهب الى الكنيسة ركب القطار وسافر الى ادنبره ووجد نفسه فجأة فى شوارع بلدة غريبة وحاول أن يتذكر اسمه والجهة التى جاء منها فلم يتمكن . ثم سلم نفسه للبوليس . وأخذ هذا فى اذاعة النشرات والبحث حتى عرف كل شىء عن هذا القسيس .

فهذه الحادثة تدل على أن حياة القسيس الدينية لم تتفق مع نزعاته الفطرية الغريزية المكبوتة ولما كان الرقيب ضعيفا طغى اللاشعور على الشعور وظهر واضحاً فى هذا السلوك .

ولعلاج المرء من عقده النفسية طريقتان :

ا — الطريقة الاستهوائية : وهذه فى ميسور المدرس أو الطبيب العادى وهى سهلة قصيرة ولكنها ليست علاجا ناجعاً دائما وانما علاج عرضى .

ب — طريقة التحليل النفسانى : وهى التى تضمن علاج المرء علاجا دائما وهى ترمى الى حل العقدة واخراجها من اللاشعور الى الشعور ولا يمكن للمدرس أو الطبيب العادى استعمالها . فهى طريقة صعبة وطويلة للغاية .

الطريقة الاستهوائية

للعلاج بالاستهواء طرق عديدة منها : —

١ — التشجيع والايهام : جرت العادة أنه اذا شكا بعض الناس من بعض الآلام قلنا لهم إن هذا وهم وشجعناهم على التغلب على هذا الألم بأن نجعلهم يعتقدون فى أنفسهم انهم أصحاء البنية وانه ليس هناك مايدعو للألم . فهذا علاج بالتشجيع والايهام

وقد يذهب كثير من هؤلاء الى الطبيب فاذا علم هذا انه ليس هناك مرض عضوى وصف للمريض انه لايلزمه الا التنزه والتروض

وبعض الاطباء الدبلوماتيين يظهر كأن المريض الذى امامه مصاب بمرض حقيقى ويعطيه دواء ربما زجاجة مملوءة ماءا مقطرا أو برشاما به قليل من كربونات الصودا والسكر. ومن الغريب ان يكون لهذا الدواء الايهامى نتيجة موجبة فى كثير من الاحوال

٢ — التنويم المغناطيسى : هـذا النوع لايخرج عن كونه حالة متطرفة من حالات الاستهواء ويشترط ليتم التنويم المغناطيسى (١) أن يقتنع الشخص المريض أنه سينام ومقـاومة المريض للمنوم تؤدى عادة الى نتائج سيئة بالاخص اذا كان المنوم قوى العزيمة ومصمماً على النجاح فى تنويم من أمامه . (٢) أن يوضع الشخص النائم فى غرفة هادئة قليلة الاشخاص . قليلة الاثاث ويطلب منه أن يستريح فى كرسى مريح أو مستلقيا على ظهره . ثم يستمر المنوم فى عمله حتى ينام المريض

وفى أثناء النوم يكون المريض فى حالة تجعله يتقبل أى فكرة يوحى بها اليه المنوم فيوحى اليه مثلا أنه قوى البنية وانه ليس به أى أثر لمرض او انه لن يأتيه صداع بالمرة ثم يوقظ النـائم بعد ذلك . وقد تكون مرة أو مرات قلائل كافية لشفاء المريض .

والشفاء هنا ليس شفاء تاما كما قلنا لان الامراض النفسية عميقة فى نفس المريض

فالتنويم المغناطيسى يعالج المرض الخارجى فقط . فاذا كان لدينا شخص يصاب دائما بالصداع فى شهر مايو فقد نشفيه من الصـداع ولـكن لا نـكون بذلك قد خلصناه من العقدة النفسية التى تسبب له الصداع . فالصداع فى شهر مايو كما نعلم طريقة دفاعية ينتجها اللاشعور للتخلص من موقف الامتحان المؤلم . والحالة النفسية اللاشعورية هنا هى حالة شعور بالنقص تـكون غالباً فى الصغر بسبب أشعار والدى الطفل له فى صغره بعدم كفاءته وقدرته

فالعلامات الاستهوائية تشبه استعمال الاسبيرين بالضبط فاذا أحس المرء بصداع فأنه يأخذ الاسبيرين ويشفى فى حينه . فالاسبيرين هنا يعالج الاعراض ولـكنه لا يعالج السبب الاصلى الذى قد يكون سوء هضم أو تسمم فى الجسم

٣ ـــ التعليم المجدد

وهذه الطريقة مبنية على شرح المرض واسبابه والذين يعتمدون عليها يعتقدون أن كثيرا من الامراض العصبية مبنية على اعتقادات واهية فمهمة المعالج هى شرح فساد الاعتقادات

ولعلنا نلاحظ فى عيادات الاطباء احيانا ان الواحد منهم يشرح سبب المرض بيساطة وفى هذا الشرح عادة راحة للمريض ناتجة من أن المريض يظن انه يفهم سبب المرض

وبما انه يقتنع بكل ما يقوله الطبيب فانه يعتقد أن الطبيب يحترمه ويقدر مقدرته وذكاءه لحد انه يشرح له معضلات الامراض

والتعليم المجدد طريقة استهوائية بحته اذا الشرط الاساسى فيها خضوع شخصية المريض لشخصية المعالج وشرح وابداء الاسباب والنتائج والاقناع .

وقد زار عيادة لندن السيكولوجية مرة طفل يخاف من الظلام فكانت طريقة المعالج معه أن ناقشه فتكلم عن العفاريت والاشباح فأخذ هذا يقنعه بالمنطق البسيط الى أن أقتنع الطفل ان ليس هناك سبب للخوف . ولكن الطبيب خشى بعد ذلك الا يجرؤ الطفل على التغلب على الاسباب المتأصلة فى نفسه للخوف فأمره بأن يحمل بطارية ويدخل بها فى حجرة مظلمة ويقف فى وسطها ثم يطفىء البطارية فكلما يحس فى داخلية نفسه بالخوف يضىء البطارية ويستمر على ذلك ويطيل فى مدة اطفاء البطارية الى أن يشعر بالأمن . فالغرض هنا اقناع الطفل باستعمال البطارية انه ليس هناك ما يدعو حقيقة للخوف

التحليل النفسانى

وللعلاج بالتحليل النفسانى طرق عدة نذكر منها ما يأتى :

١ـ الكلام العادى : وأول من استغل الكلام العادى فى التحليل النفسانى هو العلامة فرويد وبهذه الطريقة نجعل المريض يتكلم بدون قيد خلقى أو تقليدى ونتركه ينساب فى الكلام ويجب أن يكون نائما على ظهره متراخى الاعصاب . اذ ان هذه الحالة تساعد على انسياب الافكار ونحاول أن يكون كلامه قدر الامكان حول الموضوع أو المرض الذى يشكو منه فيرجع به الحديث من طريق التداعى الى ارتباطات قديمة ويظل هكذا حتى يصل الى الحادثة الاصلية أو السبب الاصلى

ويلاحظ ان المريض منه بعض الاحيان منفعل أو خجول او متألم أو غير راغب فى التحدث فهذه المناسبات هى التى تعطينا مفاتيح العقده لأن معنى الانفعال هنا هو وجود صراع نفسانى بين العقدة وبين مجرى الحديث فمجرى الحديث يستدعيها وعوامل أخرى تقاومها

٢ — التداعى الطليق غير المستمر :

وهذه طريقة سريعة للتحليل النفسانى فنلقى على المريض عدة كلمات متصلة بالغرائز المختلفة ونطلب منه الرد على كل منها بأول ما يخطر فى ذهنه فان كان زمن الرجع لكلمة ما «الوقت الذى يمضى بين سماع الكلمة والرد عليها» كبيرا أو كان الرد نفسه سخيفا نستدل على ان هذه الكلمة مفتاح من مفاتيح العقدة وهكذا نستمر حتى نجمع عدة مفاتيح للعقدة ونستعملها كبدايات لتداعى طليق مستمر «بمعنى ان نعطى الكلمة للشخص ثم نتركه يذكر كل ما تدعو اليه هذه الكلمة من الفاظ بدون تحديد» الى أن نتمكن من معرفة السبب والعقده

٣ — الأحلام

وهذه يحصل فيها تحقيق لرغبات مكبوته فالجوعان دائما يحلم بسوق العيش ثم ان الظاهر من الاحلام عادة رمز للباطن منها . فيمكن الاستعانة بتدوين الاحلام التى يحلمها المريض اولا باول وتحليلها الى عناصر ويجعل هذه العناصر بدايات تداعى طليق مستمر للحصول على سبب المرض «العقده»

٤ — التنويم المغناطيسى :

قد يجد المعالجون احيانا صعوبة فى جعل المريض يتكلم فيستعينون بالتنويم المغناطيسى على ذلك اذ أن المريض قليل المقاومة تحت التنويم فيسهل بذلك كشف عقده. ولقد وصل علم التحليل النفسانى الى حد ان المريض قد يصعب عليه تذكر حلم من الاحلام فينومونه تنويما مغناطيسياً يتذكر تحته جميع عناصر الحلم الذى لا يتذكره فى حالة اليقظة .

ويجب ان نعرف ان السبب الأصلى للمرضى ليس بكاف لحل العقدة بأى حال ولكن الشرط الأساسى فى حل العقد هو المرور بالحالة الانفعالية التى مر بها المريض عند حدوث ترسيب السبب فى اللاشعور

فالمريض الذى يخاف من الاماكن المقفلة لا يكفى ان تذكره بأنه يخاف من الأماكن المقفلة لانه عندما كان صغيرا قد نبح عليه كلب فى مكان مقفل مثلا ولكن يجب أن يمر اثناء التحليل بحالة الخوف والرعب الشديد التى مر بها فى الماضى

فالعنصر الاساسى فى التحليل النفسانى بعد تذكر السبب هو التخلص من الانفعال المكبوت أو تفريغ الانفعال المكبوت

نكسة الحب

من حامد وهو شاب فى مقتبل العمر
طبيب وأديب الى صديق له محام ،
مكتبه فى نفس البلد الذى به عيادة الأول

١

لقد وصلنى خطابك الاول والثانى وأشكرك على اهتمامك بالكتابة لى للمرة الثالثة رغم أهمالى الرد عليك ، كما أشكر لك نصحك الخالص الذى أقدره كل التقدير وان عجزت عن العمل به

أعرف ياصديق أن هجرى لعيادتى فى الوقت الحاضر وقد أخذت تترعرع وتؤتى ثمرها ، والبقاء فى القاهرة بعيدا عنها مثل هذه المدة الطويلة ، يؤدى حتما الى خرابها وضياع كل مابذلت من مال وجهد خلال عام ونصف عام . ولكن أيخشى الأنسان على عمله من الخراب أو يعنى بمثل هذا الامر أقل عناية فى وقت يرى الخراب يهدد كيانه هو . . . يهدد منه العقل والقلب والجسم والروح ! ؟

سأسرد عليك ظروف الموضوع تفصيلا ، شارحا لك أسباب هذا الاضطراب الذى اكتنف حياتى فجأة كما تقول وتلك العصبية التى استحوذت على ولم تخف عليك آثارها خلال الليلة التى قضيناها معا فى القاهرة . وأعتذر مقدماً عن أخفائى الحقيقة عنك حتى الان ، ولاشك أنك سوف تقدر عذرى لأنك سوف تفهمه

أنت تعرف قصة حبي لابنة عمى أمينه فكثيرا ماحدثتك عنها وكررت الحديث : تعرف ظروف هذا الحب المملوء طريقه بالعقبات والمفاجآت ، وكيف أسدل الستار على الفصل الأخير من

القصة فى نهاية غريبة مؤلمة ؛ وكم كنت قويا أمام هذه النهاية حتى خيل للجميع أنى أنا الذى أردتها لا القدر هو الذى قضى بها وأننى راغم فسلمت وبمرور الأيام سلوت ! ... وتعلم طبعا أن أمينة قد تزوجت وخلفت ثلاثة أطفال وعرفت أنا بعدها وأحببت عشرات الفتيات ؛ وهكذا أخذ كل منا طريقه فى الحياة !

اعتقادى دائما كما سبق ان قلت لك مرارا فى مناقشاتنا اليومية التى نختتم بها كل ليلة — تلك المناقشات التى لا نكاد نجد فى الريف سواها مع كأسين من الوسكى نرفه بهما عن أنفسنا ؛ مادمنا لا نميل الى الورق ولا الكلام فى سيرة الناس — أن الحب ماهو الا مرض أعراضه معروفة وإن جهل العلم كل شىء عن جراثيمه . هو مرض مثل الحمى تماما يختلف ضعفاً وشدة من الانفلونزا الخفيفة والا سبنيولية الى التيفويد والتيفوس . ومرض الحب قد يكون مميتاً فى بعض الاحيان ؛ ولو أنه فى الاصل مضمون الشفاء اذا ما أحسن علاجه وهيئت له الظروف المناسبه . غير أن هذا المرض — وأنا أتكلم هنا عن الحالات الشديدة لا حالات الانفلونزا البسيطه التى يشفيها وقت قصير أو دفء قليل — كثيرا مايترك بعد الشفاء منه أثارا لا يبرأ منها الانسان قبل مرور زمن طويل وقد لا يبرأ منها قط . وأظهر هذه الآثار : الملل !... وهو مايلجأ البعض فى مداواته الى الخمر والبعض الى الميسر ؛ كما أن من الناس من يلجأ فى مداواته الى الانهماك فى العمل أو فى الملذات . وهذا ما فعلت أنا عقب حبى أو عقب أخفاقى فى حبى أذ أكببت على العمل والقراءة متنقلا بين الطب والادب وعلى الملذات كلما سمحت الظروف

ومرض الحب شديد الشبه بمرض الحمى فى أن الحالات البسيطة منه ولنسمها انفلونزا الحب يصاب بها الانسان مرارا فى حياته . أما الحالات الشديدة ولنسمها على هذا القياس تيفويد أو تيفوس الحب فقد اختلف الاطباء من قبل فيما اذا كان يمكن أن تتكرر .. أى هل يصاب بها الانسان أكثر من مرة أم أنه بعد الاصابة الاولى تتكون عنده مناعة تمنع اصابته بها ثانيا ؟ كانت النظرية القديمة فى الطب تقول بأن من يصاب مرة بالتيفويد مثلا لا يصاب به مرة أخرى بينما يقول الطب الحديث بأنه ليس هناك مايمنع من ذلك . وهذا هو الشأن تماما مع رجال الادب أو علماء النفس ان أردت الدقة فى التعبير ؛ فقد كان الاجماع تقريبا فيما مضى على أن الانسان لا يحب أكثر من مرة ؛ أما النظرية الحديثة — وتجدها واضحة فى كثير من القصص الجديدة —

فتعتبر الزعم بأن الانسان لا يحب الامرة واحدة خرافة من الخرافات الا ان البعض مازال متمسكا بالنظرية القديمة الى حد بعيد ، وهم يقولون اذا ما افحموا بالادلة العملية المشاهدة كل يوم : ان من يصاب بتيفويد الحب مثلا يصاب به مرة اخرى ولكن ذلك لا يمنع من اصابته بعد ذلك مرارا بالانفلونزا او الاسبنيوليه او الملاريا فيخيل للناس خطأ انه قد اصيب ثانيا بالمرض القديم !

أظننى قد اطلت دون مبرر فى الكلام عن نظريتى فى الحب ، تلك النظرية العلمية أو الفلسفية أو الماليخولية سمها ماشئت ! . ولكن الواقع انها مقدمة لا بد منها لأشرح لك على ضوئها ظروف « النزلة » العاطفية الشديدة التى أصبت بها أخيرا

٢

منذ أن رحلت او هاجرت الى بلدكم فى الصعيد وافتتحت عيادتى هنالك مبتعدا عن القاهرة وملاهيها ، وانا احيا كما تعلم تلك الحياة الراكدة الا من العمل والاندماج فيه والقراءة والاغراق فيها ، لايتخلل ذلك سوى تلك الفترات النادرة التى ننتهزها حين يشتد بنا الملل فنهرب الى القاهرة لمشاهدة رواية فى السينما او المسرح ثم تمضية بقية الليل معربدين متنقلين بين الصالات والحانات وبيوت الحب المعروض للايجار

وقد حدث فى آخر مرة ، فى نوبة شديدة من نوبات الملل والاهتياج النفسى ، ان ركبت قطار الليل فجأة الى القاهرة وحيدا والغريب انى فى تلك الليلة لم اكن افكر من المسرات التى نهرع اليها حالما تطأ أقدامنا أرض القاهره ، بل كنت أفكر .. فيما تظن كنت أفكر؟ كنت أفكر فى أمينه ! أفكر فيها مع أنه لم يكن هنالك مطلقا ما يذكرنى بها خصوصا وهى لاتعيش فى القاهرة التى كنت أتجه اليها !! كنت أشعر بشوق شديد بل شغف الى رؤيتها . كانت صورتها قد عادت الى خيالى منذ أيام بلا مناسبة مفهومة فغمرت نفسى بالحنين والذكرى . واشتد تأثيرها فى الليلة الاخيرة حتى أنى طول مسافة القطار ، كلما غفت عينى ، رأيت وكأنها الى جانبى تتنسم أحاديث الحب

والهيام ! ولست أدرى تعليل ذلك ؛ وقد فشل العلم المادى حتى الآن فى تفسير مثل هذه الظواهر ! !

وعندما وصلت الى منزلنا فى الصباح الباكر ؛ طرقت الباب ففتحت لى الخادمه الصغيرة ؛ فهرعت توا الى غرفتى كى أخلع ملابسى وأزيل عن نفسى غبار السفر . كان اهلى قد أبقوا غرفتى بعد سفرى كما هى بسريرها المرتفع العتيق ودولابها الضخم حاويا لبقايا ملابسى وسجادتها التى أكل عليها الدهر وشرب ؛ وذلك كى أبيت فيها عند حضورى أو يبيت فيها من ينزل عندهم من الاقارب أو المعارف . وقد دخلت الغرفة على أنها خالية ، فما كان أشد دهشتى عندما وجدت أمينة نائمة فى سريرى ! وقفت ساهما أتأملها فى شوق وحنو واعجاب وتقديس : شعرها الأسود المجعد وهو مبعثر على الوساده البيضاء فى اهمال طبيعى جميل ؛ عينيها وقد اكسبهما الاستغراق فى النوم نوعا طريفا من الجاذبيه ؛ خديها البارزين فى استدارة وحمره ونقاوة ؛ فمها المتسع البديع اللون والتكوين ! .. ثم ناديتها خافتا وكأنى أخشى أن تصحو فأحرم من هذا المنظر الرائع ؛ ولما لم تصح قاربت مابين وجهى ووجهها اشم عبير انفاسها الحارة ذات الاريج الذى كنت افضله على كل رائحة عطرية فى الوجود ولم اتمالك ان طبعت على فمها قبلة هى الاولى بعد زواجها . وفتحت عينيها — وما كان أبدع رفيف اهدابها عندما استيقظت فجأة على قبلتى - فوجدتنى فغمغمت باسمى فى عذوبه وبطء وذهول

كانت هى الأخرى قد قدمت منفردة فى اليوم السابق الى القاهرة من البلدة التى تعيش فيها مع زوجها ؛ وذلك لقضاء بعض المهام أو للتسرية عن نفسها بحجة قضاء الحاجات . فكانت فرصة سعيدة لم تسمح الظروف بمثلها من قبل

مضينا معا خمسة أيام ؛ خمسة ايام تماما كتلك الأيام التى كنا نمضيها قبل زواجها ونسينا خلالها ان الدهر قد فرق بيننا ؛ خمسة ايام لا ادرى ان كانت قصيرة ام طويلة فقد مرت سريعة ولكنها كانت مفعمة بالحياة ! ذهبنا مرات الى السينما وقضينا يوما بطوله فى سفح الاهرام مهد ذكرياتنا ! الا انه لم يكن يتاح لنا خلال تلك الأيام الانفراد ببعضنا سوى دقائق معدودة نتبادل فيها احاديث الهوى اختطافا ؛ وقد تتخللها قبلة أو تمر بسلام . والواقع انى لم اكن أعمل للانفراد بها او اسعى الى ذلك . كان يسرنى وجودها معى فى هذا الجو العائلى البرىء واشعر له بنشوة عميقة . لقد كان حبى لها دائما اقرب الى الحنان والمودة او الاعجاب والتقديس . كنت

اعجب دائما بحلاوة حديثها وطرافته ؛ بعذوبة صوتها ورخامتة ؛ برشاقة حركاتها وظرف ايماءاتها
اكثر من اى شيء آخر .. وكنت اشفق على حبنا من ان يجد عليه مايفسده او يلوثه
وسأقص عليك هنا طرفا من تلك الاحاديث التى كانت تدور بيننا لتقدر ظرف دعابتها وحلو
سمرها ...

قالت يوما :

— اما زلت تحبني ؟

— وهل تشكين فى ذلك ؟ !

— لا ادرى . ولكنك على أى حال قد أحببت بعدى سميرة وسمية وحكمت وثريا وفردوس .
وأخذت تكرر على اسماء كل من عرفت تقريبا من فتيات الأسر او فتيات الصالات الى أن
قاطعتها قائلا :

— أو تعرفين ما كان يحببنى فى كل هؤلاء الفتيات ؟ انهن جميعاً كن يشبهنك فى شيء ما .
لقد كنت عندى دائما مقياس الجمال

قالت فى شيء من السخرية المحببة

— مسكينة تلك التى تحبك . انها تظل طول عمرها فى خشية من كل من يشبهها

وقلت يوما .

— اتعرفين انى لا اذكر يوما افترقت فيه عنك دون ان ابكى !

— وفى هذه المرة اسوف تبكى ايضا ؟

— ارجوك ؛ لااريد ان اذكر اننا سوف نفترق

قالت وهى تنظر الى نفسها فى المرآة ضاحكة .

— على اى حال ؛ اظن انه ليس من الصعب ان تجد سريعا من يشبهنى ولو فى فمى المتسع او
شعرى الاكرت ! فى مصر من هذا الشبه كثيرات

كما انى لا انسى تلك الاحاديث العاطفية التى كانت تدور بيننا ! والتى كانت تفيض بالذكريات
فتغمرنا بنشوة من اللذة التى لاتخلو من الألم او الألم الذى لايخلو من اللذة

قلت لها يوما ونحن فى سفح الأهرام وقد بعدنا عمن كان معنا من افراد الأسرة

— تذكرين أول قبلة ؟

— نعم ، كنا واقفين فى هذا المكان !

— وكانت ليلة مقمرة

— ولقد بكيت يومها !

— وجففت لك دموعك

— بمنديلى الأحمر الصغير

— الذى طلبته منك تذكارا واحتفظت به حتى الآن

— لاشك أن عندك مئات من مثل هذا المنديل !

— كلا ، لست احتفظ بتذكار أحد سواك من عرفت

— مدهش . كنت أعهد فيك حب العدل ، فلم هذا التفضيل بين ذكريات الاحبة ؟

— لأن حبى لغيرك كان دائما وسيلة لغاية . أما حبى لك فغاية فى ذاته

— كلام شعراء .

أظننى قد أطلت عليك كثيرا فى كلام فارغ . أنا واثق من ذلك ، فتلك الأحاديث والذكريات التى يراها المحب فى غاية الاهمية يراها الخلى تافهة كل التفاهة . ولكن معذرة ياصديقى ، اقرأها على انها قصة مملة ورطت فى مطالعتها أو حكاية سخيفة تسمعها مجاملة لصديق ثرثار

٣

وحان موعد الفراق فافترقنا . كان فراقا مؤلما موجعا أعقبه فراغ موحش قاتم مخيف . شعرت بان الحب الذى كان قد ذوى يعود دفعة واحدة كما كان وأشد مما كان !

لقد كنت أحمق شديد الحماقة ! كان يجب وأنا طبيب وأديب يقول بأن الحب نوع من المرض أن احترس من النكسة فهى دائما تأتى فى صورة أشد وأخطر . ولكنى كنت أظن وقد مضى على حبى سنوات انه قد انتهى ولم يبق له أثر ، وانه لا بأس أو لا خوف من ان استمتع اياما بآثار

ذكراه او بعث خياله فى نوع من الصداقة الوطيدة والاندماج البرىء .. ولم ادر الا بعد فوات الوقت انى كنت العب بالنار ! كنت اعتقد بأن المرض قد شفى نهائيا ، وشفى من زمن ، فمن غير المعقول ان يعود ولكن حسابى او قياسى كان خطأ . أذ تبين لى من التجربة القاسية المرة ان النكسة فى معرض الحب لا تكون قاصرة على دور النقاهة لان دور النقاهة فى مرض الحب طويل غير محدود ! !

وجدت نفسى ياصديقى فى حالة خطيرة لم أكن لأتصورها أو تخطر لى على بال . لقد كنت وقت زواجها — عقب صحبة وحب سنوات — أقوى بكثير مني عند هذا الفراق الذى لم يسبقه سوى صحبة وذكرى حب مدى خمسة أيام ! وجدت ان النورستينيا التى قاسيت منها فيما مضى كثيرا وتألمت من جرائها كثيرا وقاسيت طويلا تعاودنى فى صورة أشد بكل مضاعفاتها من أرق عنيد وضيق واضطراب وكراهة للحياة وصدوف عن كل مافيها ! ولذا فضلت أو أرغمت على أن أبقى فى القاهرة من وقتها ، اذ لم اجد فى نفسى أقل قدرة على العمل ، ولانى أخشى مايخيم على حياتنا فى الريف من تشابه وفراغ ووحدة وهدوء . واندفعت فى حياة القاهرة الصاخبة وملاهيها دون رغبة فيها أو تذوق لها !

وعند ماحضرت أنت الى القاهرة وقابلتني كنت فى اشد حالات المرض . ولقد لاحظت ذلك اول وهلة فسألتني وكررت السؤال . ولكني اخفيت عنك الحقيقة متعللا بأشياء لا اصل لها . وآسف ياصديقى على انى ولاشك قد افسدت عليك ليلتك ، وليلة فى القاهرة لشاب يعيش فى اقصى الصعيد ليست بالشىء اليسير ! . كما آسف على انى أحرجتك مع صديقتك الراقصة التى حرضتها أنت على معاكستى لتسليتى والترفيه عني ، فعاملتها بغلظة سخيفة لامبرر لها ! . لقد كان تصرفي معها تصرفا لا يصدر الا عن مجنون مخمور ! . وهل النوريستينيا فى شدتها وبغير حاجة الى الخمر سوى جنون !؟ أتدرى انى بحثت عن هذه الفتاة بعد ذلك بايام لأعتذر لها أو أعوضها عما ألحقته بها من اساءة فلم أجدها ! مساكين هؤلاء الفتيات ، كم يتحملن فى سبيل العيش .. انهن غالبا لايرين منا الا أقبح الجوانب ، ثم يلمن بعد ذلك على أنهن بلا عواطف ولا أخلاق . على كل حال أحمد الله على انى قابلتك أنت فى ذلك اليوم لا شخصا آخر ، اذ أن مابيننا من صداقة متينة لاشك يشفع لى

أشعر بأنك بعد كل هذا الكلام الطويل مازلت فى حاجة الى أن تسألنى : لماذا أخفيت عنك الحقيقة حتى الآن ؟

أتعرف لماذا ياصديقى ؟ لأن حالتى كانت تدعو الى العطف والرثاء بل السخرية والاستهزاء . ولانى واثق أن مثل تلك الهزات النفسية لاتجد صدى فى نفوس الغير مهما كان عمق تقديره ومهما كانت الصلة التى تجمعك به ، فلا يسع من تقص عليه قصتك سوى أن يبدى العطف ويخفى السخرية وهو لايبخل عليك فى أغلب الاحيان بالنصائح التافهة التى لاتجدى ولاتفيد . وأظن ان لامحل للخلاف فى ذلك ، فان العاشق نفسه لينظر — بعد هدوء العاصفة — بعين السخرية الى تصرفاته الماضية .. وأنا شخص مغرور متعجرف لأطيق العطف أو السخرية من أحد بل أفضل أن اكون مكروها محسودا على ان أكون محبوبا يشفق على أو يسخر مني . ولهذا لم أصرح لاحد مطلقا بحقيقة ما كنت أقاسيه من آلام بل فضلت أن أتحمل الى جانب آلامى مرارة الكتمان، مخفيا الامر عنك وعن الجميع . وذلك كما قلت لك كى لا ادع مجالا للاشفاق على او السخرية مني وهو مالا اطيقه من عدو او صديق حتى ولو كان مثلك ذكيا وحميما . وهكذا ابقيت الامر سرا وقمت بمعالجة نفسى دون الاستعانة بأحد ، فانا اعرف مرضى جيدا وانا اعرف من غيرى بالدواء ان كان ثمة دواء لقد صممت منذ اللحظة الاولى على ان لا ابوح بشيء الا بعد الشفاء ان كتب لى الشفاء .. اى فى وقت لا اكون فيه محل شفقة واكون قادرا على السخرية من نفسى قبل ان يسخر مني سواى ولو فى قرارة نفسه . وانا الآن احسن حالا ، احسن بكثير ، ولهذا فقد اعترفت لك بكل شيء .

آمل ان اعود اليكم قريبا فنواصل من جديد حياة العمل المتشابة والراحة المتشابهة . ولاشك انى سوف احدثك طويلا عما جد على نظريتى فى «مرض الحب» وسوف يتاح لنا فى جلستنا الهادئة كل ليلة على شاطىء النيل ، والى جانبنا كاس الوسكى ، ان نقلب وجوه الرأى فى اكتشافى الجديد ألا وهو « نكسة الحب » .

صلاح الدين كامل

السلوك والمسئولية

بزوغ نظام ادبى معنوى

عن كتاب « فجر الضمير » للمصرولوجى الامريكى برستد

للآنسة اريس حبيب المصرى

حكم بتاهوتب :

ان المبـــادىء التى وضعها بتاهوتب تعطينا اقدم تعريف للسلوك عثر عليه فى ادب اية أمة (سواء كان الادب الحديث او القديم) فبينما استنتج العلماء من المظاهر المادية القيمة الادبية للسلوك وتلمسوها خلال ماترك على القبور من نقوش ومن كلمات ودهشوا لما وصلوا الى استنتاجه من أن تقدم المصريين فى الناحية الادبية لم يكن اقل روعة منه فى الناحية المادية اذا بحكمة بتاهوتب تلخص لهم بجلاء ووضوح وجهة النظر الادبية لذلك العصر السحيق . ومن المقدمة يستدل على أن الوزير حين تقدمت به الايام وطعن فى السن طلب من الملك ان يسمح له بأن يعلم ابنه « ابن الوزير » لكى يهيئه لما سيلقى على عاتقه من اعباء وواجبات كمساعد لأبيه ثم كخلف له . فوافق الملك وعندها كتب بتاهوتب حكمه فى شكل نصائح لابنه . وكانت النصيحة الكبرى التى وجهها الوزير الشيخ الى ابنه هى الايسىء استعمال الحكمة التى سيتسلمها بل يدرب نفسه عليهـا بكل دعة فيقول له : «لايداخلنك الزهو لانك متعلم . استشر غير المتعلمين كالمتعلمين . لأنه لا حد لاية حرفة او فن ولا يوجد فنان او صانع كامل .

* كان المظنون ان حكمة بتاهوتب ترجع الى الأسرة الثانية عشرة اى حوالى سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد . ولكن توالى الادلة على انها كتبت فى ايام الدولة القديمة اثبت الآن بوضوح انهـا اقدم من ذلك فعلا اى حوالى سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد . ومما يدل على أن بتاهوتب نفسه هو الذى كتبها كتابة اسم هورس بالطريقة الخاصة بالملك يوسركاف

والـكلام القيم أصعب منالا من الجواهر الثمينة ولكن يمكن العثور عليه حتى بين الجوارى وهن يدرن حجر الرحى . » ويتبع ذلك ثلاث وأربعون فقرة من الحكم ولم يعن واضعها بترتيبها او تنسيقها اذ يظهر أن الوزير كان يدون كل ما يعن له من الملاحظات والآراء مما توحيه اليه اختباراته الطويلة . وفى هذه الحكم يؤكد الوزير وجوب التبصر فى الامور وإعمال العقل الذى يسمى عند قدماء المصريين بالقلب * ومقدرة الشاب على الاصغاء والطاعة (حرفيا مقدرته على اعطاء قلبه للعمل) هى اثمن صفاته . « والمصغى هو الذى يحبه الاله ـ اما من لا يصغى فيكرهه الاله . والفهم « او بالحرى القلب » هو الذى يجعل صاحبه مصغيا أو غير مصغ . وحسن حظ المرء هو فهمه ـ . فما اجمل ان يصغى الابن لابيه ! وان تسلم الابن اقوال ابيه فان كل اعماله تنجح . عود ابنك الاصغاء يكن ناجحا أمام الامراء فلا يتفوه بما لا يليق ـ كم من الاخطاء يتعثر فيها غير المصغى ! والرجل الحكيم هو من يبكر فى تثبيت نفسه ـ اما الجاهل ففى اضطراب ـ الجاهل الذى لا يصغى لا يستطيع احد ان يعمل له شيئا ـ فهو ينظر الى الحكمة كأنها جهالة والى النافع كأنه ضار ـ والابن المصغى يطول عمره ويحصل على احترام الناس ـ وهو ايضا يعلم ابناءه ويجدد لهم تعاليم ابيه ... وهو يحدث ابناءه وهم يحدثون ابناءهم ـ » فمنذ القرن السابع والعشرين قبل الميلاد كان السلوك اذن من التقاليد الموروثة قد وضعت قواعده وصارت تسلم من جيل الى جيل ـ

وكان التقدم فى الامور العالمية هو المطمح الذى يصبو نحوه الشباب والمسائل المؤدية الى تحقيقه هامة للغاية ـ وهى لذلك تستغل نحو ثلث الحكم التى خطها بتاهوتب ـ وبعضها يالح بوجوب مراعاة اصول اللياقة فى حضرة العظماء ويتضمن كيفية السلوك عند العشاء مع كبير من الكبراء : « خذ حين يقدم لك كل ما يوضع امامك ولا تنظر الى ما فى طبقه بل الى ما فى طبقك فحسب ـ ولا تضايقه بكثرة نظراتك ـ ارخ عينيك حين يكلمك ولا تتحدث الا حين يبدأ الحديث معك ـ اضحك حين يضحك حتى تكون محببا الى قلبه ويرضى عن كل ما تعمل . لانه لا يعرف أحد ما فى القلوب . » ومن المهم جدا

* من أعجب ما يجدر لفت النظر اليه هو أن اللغة المصرية القديمة لا تعرف كلمة « العقل » ولكنها تعبر عن العقل او الذكاء بعبارة « فهم القلب » ـ وفى هذا ما يدل على ناحية جديرة بالتأمل فى العقلية المصرية القديمة ـ ولا يزال هذا التعبير موجودا فى اللغة القبطية ـ

فى كل المناسبات الا يكثر من الـكلام وان يتجنب التهجم .

وكثير من النصائح تتعلق بوجوب الحكمة والحذر فى العمل المصلحى . فان كان رئيسك رجلا من أصل وضيع « فتجاهل حالته الوضيعة الاولى . . احترمه بسبب ما اكتسبه لنفسه لان النجاح لا يأتى من نفسه « دون جهـاد » . اياك ان تـكرر كلمات الحمق التى تلقى جزافا وقت الغضب . كن صامتا فالصمت اجمل من الزهور . تكلم حين تعرف ان كلماتك ستفض المشا كل والفنان هو من يعرف ان يتكلم عند المشورة . لان الـكلام اصعب الفنون . »

أسد النصح خالصا للامير «لان معيشتك تتوقف على رضاءه فتمتلىء بطون احبائك ويكسى ظهرك به ... دع عقلك للتفكير العميق ولسانك لقلة الكلام . حكم عقلك دوما وانت تتكلم . ولعل الامراء حين يسمعونك يقولون ما اجمل الكلمات الخارجة من فمه !»

والغرض الظاهر من هذه النصائح هو الدهاء والسياسة فى الامور العالمية ولكن لا يمكن ان يتهم واضعها بالخطل السياسى او ان يقال انه مكيافيلى ذلك العصر السحيق . ومن الواضح ان هذا الشيخ السياسى كان بعيد النظر فيما يتعلق باقتناص الفرص المصلحية ولـكن الى جانب ذلك يدرك ان هناك امورا اسمى . فهو لادراكه بان دوام الحال من المحال تعلم التواضع . فيقول لابنه : «ان انت صرت عظيما بعد ان كنت حقيرا وان انت اثريت بعد ان كنت فى حاجة .. لا تنس ما كنت فيه من قبل . ولا تتفاخر بما احرزت من غنى جاءك كعطية من الله . فلست اكبر من غيرك ممن اصابوا النجاح مثلك »

وكان يرى ان عمل الموظف الخادم للمصلحة العامة محفوفا بالمخاطر فيقول : « احذر الايام المقبلة . » وما دام الامر كذلك كان من الحـكمة العمل على ضمان حب الغير فيقول لابنـه : «ارض اصدقاءك بما حباك الملك من عطايا .. لا يعرف احد حظه فى المستقبل حين يفكر فى الغد . فان تحول قلب الملك كان الاصدقاء هم الذين يرحبون بك . »ولكن لا تنس انه «حين يسوء حظك فلتكن فضائلك اثمن حتى من اصدقائك . »

ويجب على الانسان ان يهتم بصفات اصـدقائه : « ان فحصت شخصية صـديق لك لا تسأل

سؤالا ولكن اقترب منه وعامله على انفراد . استطلع مافى قلبه بحديثك . فان بدا منه مالا يعجبك او عمل ما يخجلك .. فلا تجب ٠ »

الا ان المسئوليات العائلية أهم فى نظر الشيخ من الاصدقاء . فهو يهيب بابنه « ان كنت رجلا ناجحا فأسس لنفسك بيتا . احب زوجتك انتى فى بيتك كما يليق .» (ويقول برستد انه بعد اعداد كتابه للطبع جاءه فلاح من الاقصر بقطعة من الحجر عليها نقوش هير وغليفية وجدها وهو ينقب فلما تبينها العالم اذا بها نسخة من حكم بتاهوتب خطها كاتب عاش بعد بتاهوتب بالف وخمسمائة سنة . فخيل لبرستد حينذاك كأنما دخل غرفته ذلك الشيخ الحكيم بنفسه ليحدثه عن آرائه .) وكانت النسخة الثانية اكثر رونقا من الاصل كتب ضمنها : «ان كنت رجلا ناجحا اسس بيتا وخذ لنفسك زوجة تكون سيدة قلبك . املأ جسمها واكسها . فلا توجد كماليات لاتليق بها . اعطها طيبا وعطرا .» وهكذا نرى الوزير الحكيم حين يتكلم عن حاجة المرأة يبدأ بالعاطفة ثم يسد حاجيات الجسم من مأكل وملابس ومن كماليات كالعطور والطيوب . وبهذه كلها نصح الشيخ الزوج الصالح ان يسعد زوجه : «أفرح قلبها ما حييت . لانها حقل مثمر لزوجها . »

وأبدى بتاهوتب آراءه فى الابوة بطريقة حازمة لاتقبل الجدل حيث يقول : « ان كنت رجلا ناجحا وقد اسست بيتك ورزقت ابنا فان ابنك ينال رضى الاله — ان عاش بلا لوم وخضع لشخصيتك واصغى الى تعاليمك وكانت اغراضه خليقة بك وحافظ على تراثك كما يجب فاطلب له كل خير فهو ابنك الذى اوجدته نفسك (كا) لك . لاتبعد عاطفتك عنه .. ان اخطأ وضل عن اغراضك ولم يراع تعاليمك فان غرضه شر وهو يضاد كل ماتقوله وفمه منجس بكلام الشر .. فاطرده من بيتك فليس هو بابنك لانه لم يولد لك ٠ »

وبينما الوزير يدرك اهمية النجاح العالمى وحيازة الغنى الا انه لايسمح ان يكون واحد منهما سببا فى اضعاف العلاقات العائلية . «لاتكن طماعا عند اى اقتسام ولا شرها حتى فى مالك الخاص ٠ لاتكن جشعا نحو اقاربك ٠ لان الرقة اكثر استجلابا للعطف من العنف . والمعتدى على حق اقاربه يفقر نفسه وينقصه الحديث العذب المؤثر . والقليل من المال ان كان سببا فى جعل المرء ماكرا يوجد العداوة حتى عند بطء الغضب ٠» والبخل اعظم عدو لعلاقات المودة العائلية : «ان شئت

ان يكون سلوكك قيما فاحفظ نفسك من كل شر واحذر البخل لانه داء عضال لايفسح للود والصداقة مجالا . بل هو يجعل حلو الصداقة مرا . ويبعد نفس الصديق عن صديقه . ويقيم السدود حتى بين الآباء والامهات واخوة الامهات . ويفرق بين الرجل وزوجته . انه كتلة من الشرور وحزمة من الحقارة والتفاهة .. لايوجد قبر للبخيل . »

وهذا الادراك لعظم القيمة التى للألفة العائلية الخاصة بالفرد مصحوب بالاحترام لهذه الالفة فى العائلات الاخرى اذ ينصح الوزير بالحرص واحترام نساء الغير ويقول : « ان شئت أن تثبت دعائم الصداقة فى أى منزل تدخله — سواء ادخلته كصديق او كسيد أو كأخ ـ فاحذر من الاقتراب من النساء حيثما دخلت ـ فليس من اللائق الدخول حيث يقمن وليس من الحكمة التداخل بينهن ـ فالف من الرجال يسقطون من جراء لذة ينغمسون فيها مدى دقائق ولا ينتج سوى الموت من معرفتهن ـ » وتوجد نسخة من هذه النصائح كتبت بعد الاولى بسنوات وهى ادق تعبيرات منها يقول فيها : « ان سكر انسان بنشوة القد الرشيق (او الزجاجى على حد التعبير الهيروغليفى) سرعان ما يصير كل شىء لحظة ـ لحظة واحدة خاطفة كلمح البصر او كالحلم ثم بعدها الموت » ويظهر ان هذا العقاب كان ساريا منذ الدولة القديمة ـ

وتسود النصائح جميعها روح التسامح والترفق ـ وتبدو هذه الروح فى أول الامر فى البيت وفى العائلة حيث للعلاقات إسمى قيمة ثم تمتد روح التسامح ايضا الى العلاقات المصلحية فى معاملة الاشخاص الذين لا يحتك بهم الفرد الا فى العمل ـ وهذه الروح يعبر عنها الشيخ حين يحث ابنه على البشاشة والابتسام اذ يقول : « كن باش الوجه طالما حييت » ويكمل هذه النصيحة بكلمة لاشك فى انها المصدر للمثل الانجليزى القائل : (ليس من فائدة فى البكاء على اللبن المنصب) وهذه البشاشة الرقيقة تتوافق وشدة الحاح الشيخ فى وجوب اللهو والتسلية ـ وهو لا يقصد بذلك مجرد حفلات العشاء والموسيقى والرقص ولعب الشطرنج والتسلية فى الحدائق الغناء أو فى الصيد والقنص او فى الانتقال من مكان الى مكان فى مزارعه الواسعة محمولا داخل هودجه على اعناق عبيده — بل يرمى الى أبعد منها لانه ينصح ابنه قائلا : اتبع رغبات قلبك مدى حياتك . لاتفعل

اكثر مما يطلب منك . لاتجعل وقت رغباتك قصيرا لانه من العيب الاختصار فيه . لاتشغل بالك الا بالاهتمام بمنزلك . وان اثريت فاتبع رغباتك وميولك لان الثروة لا تكمل ان كان صاحبها متضايقا . »

ولا بد أن الشفقة كانت امرا سهلا لمثل هذا الشيخ الحكيم . فهو يقول لابنه : « ان كنت حاكما كن لطيفا حين تصغى الى شكاوى المتألمين لاتقاطعه الا بعد ان يكون قد فرغ من بث ما فى صدره من كلام عن له ان يخبرك به لان المتألم (او المظلوم) فى حاجة الى الترفيه عن نفسه ليستطيع ان يصل الى الغرض الذى من اجله جاء اليك .. ومن حلى القلب الاصغاء برفق »

وليس من شك فى ان هذا الترفق الذى يبغيه الوزير هو قريب جدا من العدل وحسن المعاملة. فليس من المستغرب اذن ان نجد ان البر والعدل قد كان لهما المحل الاول فى حكم بتاحوتب . فهو يقول « ان كنت حاكما تصدر القوانين للجماهير فالتزم السوابق الحكيمة حتى تجتنب الخطأ . عظيم هو البر . والعمل به يدوم ولم يسقط منذ ان أقامه خالقه * لان العقاب يقع على من يخل بقوانينه ... وان جر سوء الحظ الخراب فزال المال .. فان قوة البر فى دوامه حتى ان المرء يستطيع ان يقول «هذا المال ورثته عن ابى» لذلك كان الواجب على الشاب حين يكلف القيام باى عمل ان يذكر تلك الكلمة : « تمسك بالبر ولا تخل به حتى ولو كانت الرسالة التى تحملها امرا ثقيلا على النفس . » فالشاب عليه ان يوصل الحقائق حتى لو اضطر ان يخبر رئيسه بالحقيقة المؤلمة .

ومن الواضح ان هذا العمل يتطلب قوة الشخصية وهذا مايتمناه الشيخ لابنه اذ يقول : «توصل الى القوة الادبية .. ثبت دعائم البر فيعيش اولادك .» ثم يذكره بانه « عزيزة على المرء فضائل ابنه والمرء الفاضل نابه الذكر » . «فان اصغيت الى ما اقوله لك فانك ستكون كاجدادك . اما برهم فهو كل قيمتهم . وذكرهم باق فى افواه الناس لان مبادئهم كانت قيمة . وكل كلمة ستبقى ولن تموت فى هذه البلاد ابدا . وستكسب قيمة حتى لما يقوله الأمراء . ان ذاع صيت رئيسك

* يلاحظ ان النسخة الباقية من ايام الدولة المتوسطة تذكر اسم او زوريس فى هذه المناسبة — اما فى النسخة المتخلفة عن عهد الامبراطورية فقد احتفظ الناسخ بالتعبير القديم وهو «خالقه» الذى كان يقصد به الاله الشمس من دون شك .

فسيظل عظيما الى الابد وكل حكمته ستدوم . اما الحكيم فتفرح نفسه حين يجعل قيمته دائمة على الارض . والحكيم مشهور بما يعرف وقلبه ميزان لسانه وشفتاه لا تحيدان عندما يتكلم ولا عيناه حين يبصر ! واذناه تصغيان الى ماهو نافع لابنه الذى يعمل البر وهو متحرر من الكذب » وربما كان خير تعبير لروح الوزير الادبية يتلخص فى تحذيره من الطمع والجشع اذ يندفع من دون ان يغير مجرى حديثه بتلك الكلمات : «ثابت هو الرجل الذى يعمل تحت لواء البر والذى يسير طبقا لقواعده .» وتلك الكلمات لها رنة الحكمة العبرية القديمة كما دونت فى صفحات العهد القديم ولكنها سبقتها بنحو الفى سنة .

ويختتم الوزير الشيخ حكمه وهو لا يزال يتغنى بالبر فيقول لابنه « ان الابن الحق الذى يهبه لاله يقوم باكثر مما يقوله له ابوه : فهو يعمل البر ، كما ان قلبه يعمل حسب او امر ابيه . بقدر ما تستطيع الوصول الى ماوصلت اليه يكون جسمك صحيحا وتستطيع ان تبلغ من العمر مابلغت . وحياتى ليست بقصيرة فقد بلغت السنة العاشرة بعد المائة . وقد حبانى الملك الهبات والعطايا اكثر مما وهب آبائى لاننى عملت البر للملك حتى القبر » وقد سبق ان قيل ان الملك يوسركاف كان قد جعل احد اسمائه الرسمية « العامل البر » وهذه الحقيقة تثبت ان حكم بتاهوتب كانت عظيمة الاثر فى الاوساط الراقية حتى وهو شاب :

واكثر من نصف النصائح التى يسديها بتاهوتب تتعلق بالشخصية وبالسلوك والباقى يتعلق بالحكم وبكيفية السلوك فى العمل الحكومى : وقد بدت لنا منها اجمالا روح التسامح والرفق والحذر مع اظهار الذات والثقة بالنفس وبذلك يحث الشاب على الاحتفاظ بالتوازن والتعقل . فالحياة عظيمة القيمة . ويجب ان نأخذ منها باسباب اللذة والمرح والا نجعل الواجبات الحكومية أو المشاغل الخاصة تطغى على أوقات راحتنا وتسليتنا . وفوق هذا كله يجب على المرء ان يكون ابدا باسم الوجه لانه « لافائدة من البكاء على اللبن المنصب » . واخيرا يؤكد الشيخ ضرورة الجد فى السعى الادبى الذى يسود كل حكمه وفلسفته واظهر نصائحه هاتان النصيحتان : « اعمل الحق » و « عامل الجميع بالعدل »

واعظم الصفات البشرية واهمها فى نظر ذلك الشيخ القديم هو « البر » وقوة الشخصية كشىء يبقى بعد ان تنتهى الحياة فتظل ذكرى الشخصية النافعة القوية الى الابد . وليس بغريب ان مثل هذه العقائد يعبر عنها فى ملف بردى تنعكس فيه صورة من الود والرفق ومن علاقات الصفاء العائلى واحترام الوالدين ويبدو فيها التحذير من الجشع لانه يهدم الالفة العائلية . كل هذه العواطف وخاصة بمجتمع واحد ونبتت معا فى نفس الوسط الاجتماعى : العائلة اولا ويليها الباقى كنتيجة طبيعية فحكم بتاهوتب تؤيد على وجه قاطع المعنى الذى ينطوى عليها مافى القبور من صور ونقوش وهو ان الحياة العائلية هى المكان الاول الذى ادرك فيه الانسان واجباته الادبية واحس بها .

اقدم المبادىء الادبية فى تاريخ العالم .

وفى هذا العصر عينه صارت المسئولية الادبية محلا للتأمل والتفكير . وفيه ايضا بدت التأملات فى طبيعة الانسان — فكان الحكيم والجاهل محلا للمقارنة ، ووضعت الصفات البشرية فى الميزان ، وقورن بين مافيها من شر ومن خير ؛ فبرز الى الوجود عالم جديد يسمو فوق عالم الماديات وفيه يختلف تقدير الاشياء : وفى ذلك العصر ايضا بزغ الادراك للمسئولية وصارت الحياة مكانا لقوى جديدة تتدافع فيها الجهود نحو اغراض جديدة . فكان ذلك العصر الذى هو اقدم عصر لادراك الشخصية والاعتراف بها هو عصر برز فيه اول افراد وسموا فوق الجماهير التى لا اسم لها ولا ذكر فى العصور السحيقة السابقة له . فطباع الفرد القوى مجتمعة بطابعه لالشىء الا لقوته ولشخصيته . واحتفظت لنا آثار ذلك العصر التاريخى العظيم باسماء بعض اولئك الافراد البارزين . ففى القرن الثلاثين قبل الميلاد حول امهوتب (كبير الوزراء فى عهد الاسرة الثالثة) البناء من الطين والخشب والجذوع اليابسة التى كانت تستعمل اذ ذاك الى ابنية شامخة فخلق بذلك اول بناء من الطوب . وهو اول فرد بارز فى التاريخ . وقد كانت حكمته ومعرفته للطب سببا فى ذيوع صيته وفى تبجيله مدى آلاف السنين . وهو لما نال من تقديس كطبيب ظلت ذكراه باقية وصار معروفا عند اليونان باسم اسكليبيوس وعند الرومان باسم اسكولابيوس . وهو الاله الحامى لعلم الطب على مر الدهور . وكانت حكمه متداولة بين احفاده بعد موته مدى الف وخمسمائة سنة على الاقل ولو انها للأسف ضاعت الآن .

وكان كاجمى حكيما آخر ممن عاشوا فى القرن الثلاثين قبل الميلاد بعد موت امهوتب بقليل .وقد عرف عنه أنه هو أيضا كتب نصائحه لابنه ولو أن هذه أيضا ضاعت .

وبعد أن انقضى نحو قرن من الزمان على موت امهوتب عاش هارددف ابن خوفو بانى الهرم الاكبر. وكانت حكمة هارددف هذا تتردد على ألسنة الناس مع حكمة امهوتب مدى ألف وخمسمائة سنة أيضا . ولكن لم يبق من حكم اولئك جميعا إلا حكم بتاهوتب وهى جزء ضئيل جدا مما بقى من ذلك العصر السحيق الذى هو أول عصر عظيم للعقل البشرى . والى جانب هؤلاء يقف عالم مجهول هو مؤلف أقدم رسالة علمية عن الجراحة التى بذرت بذورها فى أيام امهوتب نفسه .ومؤلف هذه الرسالة وهو أقدم عالم عرفه التاريخ كان أول رجل استطاع أن يفرق بين قوى الطبيعة وبين قوى الآلهة اذ يتناقش فى الاذى الذى يصيب الرأس بسبب خارجى أو كما يسميه « شىء داخل من الخارج » أو حادث خارجى . ومع أن الحادث الخارجى هو السبب فى الألم كما يقرر ذلك العالم القديم الا أنه فى الوقت عينه يقول انه يكون متسببا عن غضب الاله أو رضاه فيقول «هذا معناه أنفاس اله خارجى وليس من انحراف داخلى ناتج عن الجسم نفسه» وهكذا يفرق بين ماينتج عن عمل الجسم من الداخل وبين ماينتج من خير أو شر تحكم به الآلهة وهذه ملاحظة دقيقة لم يسبق أحد من المصريين أو من غيرهم أن لاحظها أو دونها فهى أقدم وثبة للتفكير البشرى .

وقوة الشخصية — والقوى المعترف بها الآن انها تكون الشخصية — بدأت تظهر اذ ذاك ليس فيما كتبه المفكرون من تأملات فحسب بل انها برزت فى الفن الذى نتج عن ذلك العصر خصوصا فيما نحته المثالون الموهوبون الذين أبرزوا لنا أقدم التماثيل البشرية . فقد كان من جراء استتباب النظام منذ أجيال طويلة أن نشأت عنه حضارة خاصة طبعت الفن بطابعها . اذ كانت التماثيل كلها فيما قبل ذلك متماثلة متشابهة يخلو معظمها من الطابع الفردى . ومن الممكن أن التماثيل التى انتجها فنانو هذا العصر تطلعنا على أقدم المثل النموذجية للأشكال البشرية وبذلك توقفنا على التناسق الناتج عن نظام أدبى طويل الأمد محا كل الاختلافات الفردية . وهذه التماثيل النموذجية أصبحت الآن محلا لنقد الناقدين اكثر مما يجب — ولكن أعظم ما أنتجه مثالو الدولة القديمة يظهر لنا انهم كانوا منذ ذاك قد بدأوا يدركون القوة والفردية التى للشخصية البارزة العظيمة كما بدت لهم لأول وهلة فى شخصية الفرعون بقامته الطويلة

وطلعته المهيبة . فعبروا عن ادراكهم هذا بطريقة رائعة . وخير مثل لهذه الطريقة تمثال خفرع بانى هرم الجيزة الثانى . ولا شك فى أن هذا التمثال كان كبير الأثر على عقلية الناس وساعدهم على تخيل الالوهية . وفوق هذا توجد مجموعة من التماثيل توضح لنا بدقة وقوة صور الرجال العظماء الذين كانوا يحيطون بالفرعون : رجال البلاط والحكماء والفنانون والمهندسون والعلماء الذين عاشوا منذ خمسة آلاف سنة وجعلوا من مصر بلد العجائب والفن وأقاموا فيها أدلة ناطقة لاتزال اليوم تخلب الألباب وتأخذ بمجامع القلوب — فى حين أن الابنية الطينية التى أقيمت فى ذلك العصر فى آسيا الصغرى قداندثر معظمها وأصبحت أثرا بعد عين . والمقارنة لها قيمة عظمى فيما تتركه من أثر على عقولنا الآن وهذه القيمة هى أن مصر هى البلد الذى بزغ فيه أول عهد عظيم للشخصية الانسانية .

وهؤلاء الرجال العظماء لم ينشأوا بمحض الصدفة ، او كبناء غريب ، بل كانوا نتيجة طبيعية لحضارة الف سنة من الجهاد البشرى ، وكانوا اول مجموعة من الرجال فى استطاعتهم ان يعودوا ببصرهم الى الوراء صوب ماض طويل مجيد . ولابد انهم حين كانوا ينظرون الى الماضى كانوا يحاولون تلمس طريقهم فى التعبير عن فكرتهم عن النظام البشرى باحسن كلمات ويركزون فيها اسمى ماتوصلوا اليه من تراث واخيرا عثروا على كلمة واحدة عجيبة جمعت كل ما يحسون به ولا يستطيعون التعبير عنه — كلمة تعبر عن اسمى مافى الحياة البشرية — هذه الكلمة هى « مات » او «مآت» وهى من اقدم الكلمات المعبرة عن المعانى المجردة التى وصلت الينا .وقد ترجمت هذه الكلمة « بالبر » و « العدل » و « الحق » لان كل هذه المعانى كان يعبر عنها فى الهير وغليفية بهذه الكلمة الواحدة « مآت » وقد كان معناها عن اجدادهم مجرد « البر » بمعنى « الصواب » — اى عكس الخطأ — الصواب الثابت المحقق حسابيا وادبيا . وعند استتباب الدولة القديمة كان معنى «مآت» قد اتسع وامتد الى ان صار يضم دائرة واسعة من المعانى المجردة . فلم تعد هذه الكلمة تؤدى فقط معنى الصدق على عكس الكذب بل كان معناها البعد عن كل خطأ عادى اومعنوى . ولايعرف متى بدأت الكلمة تكتسب هذه المعانى . ولكن من الشائق جدا ان نلاحظ ان كلمة «مآت» غيرموجودة بالمرة فيما بقى من ملفات «قصة ممفيس» ولا يدرى احد ان كان السبب فى ذلك أن هذه الكلمة لم تكن قد خلقت بعد او انها ضاعت فيما ضاع من تلك القصة بفعل عاديات الزمن .

وبعد عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد بدأ رجال الدولة القديمة يدركون معنى «مآت» ويفسرونها تبعا لروعة مدنيتهم القومية فصارت كما عرفوها وفهموها تعنى النظام القومى ، النظام الادبى الذى للامة، الحكم الوطنى تحت سلطة الاله الشمس . ولنحاول الآن ان نتصور ذلك الماضى البعيد الذى كان رجال الدولة القديمة يرمون بابصارهم صوبه : ذلك الماضى الذى تطورت فيه حضارة مصر واتسعت حتى انتجت لهم كلمة «مآت» بشتى معانيها المجردة . لقد كانت امامهم قائمة من اسماء الملوك العظام الذين حكموا مصر قبل وحدتها الاولى — وكانوا يعرفون ان مصر ظلت اجيالا عديدة مقسمة الى ممالك صغيرة لكل منها ملكها — ثم تألفت هذه الممالك الصغيرة واتحدت والفت دولة مصر فتمت بذلك الوحدة الاولى . كانوا يعرفون جيدا هذا التاريخ وكيف ان مصر بعد هذه الوحدة الاولى زاد التآلف بين اجزائها واشتد تماسكها حتى وصلت الى عصر دام عشرة قرون هو عصر الوحدة الثانية . ومن المهم جدا ان ندرك ان هذه القرون العشرة كانت اول سلسلة متصلة الحلقات منقطعة النظير من التقدم القومى او بالحرى من النمو الناتج عن الجهود المتحدة فى سبيل نظام وطنى : حركة مستمرة متدرجة من التطور قام بها ملايين من الانفس — ولاول مرة على ظهر هذه الارض قام بناء شامخ من النظام البشرى دام آلافا من السنين . ولقد كانت رؤيا هذا الماضى السحيق وما تم فيه من تقدم وما نتج عنه من مدنية منظمة ثابتة الدعائم — هى التى ادت الى اتساع معنى «مآت» وجعلها تضم «العدل» و «الحق» و «البر» — تلك المعانى ادركها اولئك الرجال كما ادركوا ايضا ان المقصود من «مآت» ليس هذه الفضائل التى يجب ان يمارسها كل فرد فحسب بل انها ترمز الى الحكومة القائمة كحقيقة راهنة والى النظام الادبى العالمى الذى ثبت فرعون دعائمه . وكان قاضى القضاة فى المحاكم المصرية قديما يلبس على صدره صورة للالهة «مآت» وعند اصدار الحكم كان يحول هذه الصورة صوب البرىء من المتهمين . وكان بتاهوتب يتغنى بسلطة مآت كشىء ثابت الى الابد : «عظيمة هى مآت وحكمها دائم — ولم تسقط قط منذ ان أنشأها خالقها . » ومرارا وتكرارا نقشت «مآت» على الآثار والمعابد القديمة كالقوة التى يرمز اليها الفرعون ويقويها ويثبت دعائمها ضد الفوضى والظلم والرياء الذى يتمثل فى خصومه الذين يضايقون الشعب بضعف نظامهم وتشويشه . لقد كان النظام الثابت المستمر مدى الف من السنين هو الذى ألهم حكماء الدولة القديمة واعطاهم صورة لجلال مآت وعظم

خيراتها فاكسبها قوة ما كانت لتكسبها لولا استتباب الحكم والنظام مدى هذه القرون.

ومن الواضح ان المجتمع والحكومة او بالحرى كل المؤثرات الناتجة عن عمل المجتمع وعمل الحكومة انتج نظاما خاصا عبر عنه المصريون بكلمة مآت .

وبعد أن نشأت مآت بادىء بدء كأمر فردى أو صفة من صفات السلوك الشخصى السليم فى الاسرة وفى الوسط الفردى الخاص تطورت تدريجا الى أن صارت الروح الممثلة لكيفية الحكم والنظام القومى — نظام امتزج فيه الحكم المنظم بالعقيدة الادبية . وبهذه الطريقة نشأ لأول مرة مستوى سام عام للخلق الادبى . وحين أدرك المصريون هذا الخلق وخضعوا لسلطانه بدأوا فى السير نحو وحدة الالوهية . وقد كان الحاكم الالهى هو الاله الشمس الذى تمثلت روح سلطته فى مآت ابنته . وهذا المنهج هو الذى أوصلهم فعلا فى نهاية الأمر الى عقيدة وحدة الالوهية . ولم يكن بصدفة توصلهم الى عبادة اله واحد قبل أى شعب آخر . كما أنه لم تكن بصدفة أيضا أن الذين توصلوا الى فكرة التوحيد بعدهم كانوا جيرانهم فى فلسطين وان قال أحد أنبيائهم « ولكم أيها المتقون اسمى تشرق شمس البر والشفاء فى أجنحتها » مشيرا من دون شك الى الاله الشمس المصرى الذى كان يرسم دوماً على شكل قرص بأجنحة .

وحين نوجه أنظارنا صوب آسيا يتضح لنا بجلاء السبب فى تأخر الحضارة الاسيوية تأخرا كبيرا فى هذه الناحية . فيجب الاعتراف بأن ادراك النظام وكيفية الحكم واقامة العدل تبعا لما ترسمه مآت — يجب الاعتراف أن مثل هذا النظام هو أعظم نظام لحضارة الشرق . فهنا فكرة من الواضح لنا انها وليدة عشرة قرون من التطور الاجتماعى والحكومى لحياة متحدة مستمرة متطورة أبدا صوب وحدة وطنية سامية . وهذا الادراك ولو ان أنبياء اليهود تغنوا به وصوروه صورا رائعة ورمزوا به الى ملك بار الا أنه لم يبرز فى غرب آسيا قبل مجىء زورو استر ونظامه الادبى العظيم بعد قيام الامبراطورية الفارسية تحت حكم قورش ومن جاء بعده من ملوك الفرس . أما فى مصر فالتطور من الوحدة الثانية الى المملكة القديمة نتجت عن حضارة هى ثمرة الف من السنين من الخبرة القومية أساسها نظام حكومى قومى مستمر يبعث على النشاط ، تثبت دعائمه مدى عشرة قرون ، فملأت نفوس العاملين ثقة وحماسة . فى حين أن بابل وهى أقدم هيئة منظمة متحضرة فى غرب اسيا كانت

مدى هذه الالف من السنين فريسة للفوضى ولتقلب الحكام وللحروب الاهلية الناشئة عن طمع الامراء وذوى السطوة . ولكن مصر منذ فجر التاريخ كانت قد تركت هذه التجزبات وما تؤدى اليه من تخاذل واضطراب . وليس من شك فى أن الحضارة باجلى معانيها هى ثمرة للتطور الاجتماعى الطويل . لذلك كان استنتاج الباحثين المبنى على ما يجدونه من آنية نحاسية ومن حلى ذهبية وهو الاستنتاج الذي يذهب أصحابه الى أن الحضارة البابلية التى لم تتح لها الفرصة التى أتيحت لمصر — فرصة الحكم المنظم الموحد للقوى والاغراض — هى أقدم من حضارة مصر

كان استنتاج هؤلاء الباحثين سطحيا لايرتكز على اساس صحيح . اذ مما لاشك فيه ان التقدم السياسى والاجتماعى تم فى مصر فى عصور سحيقة قبل ان يبدأ فى غرب اسيا باجيال . والواقع ان بابل تأخرت عن مصر فى الخبرة الدينية والاجتماعية والسياسية نحو الف سنة على الاقل .

وهذه الحقيقة مهمة جدا لانها تجعلنا ندرك قيمة الحضارة المصرية خلال هذه القرون العشرة ـ لانها كانت حضارة فريدة فى بابها . وعلى شاطىء النيل نرقب طلائع الفكر البشرى — اذ شعر الانسان لاول مرة شعورا غامضا مبهما بمقدار ما احرزه من نصر فى الحياة — او نصر على الحياة ـ فاستعان بالخبرة القومية مدى الف سنة ليشحذ همته للجهاد فى دائرة جديدة هو الجهاد ضد القوى التى تهاجمه من الداخل . ففى خلال الالف من السنين احرز اعظم انتصار على خصومه الذين من الخارج فى عالم الماديات اما الآن فقد اخذت الاصوات الداخلية تهيب به لكى يسمو ويجاهد فى دائرة لاعهد له بها من قبل .

ولسوء الحظ ان اسم الاله الذى ادرك المصريون انه الحاكم الادبى الاعلى فى العالم الآخر غير مذكور . ولكنه وصف بانه «الاله العظيم» وفى ملف آخر وصف بانه «الاله العظيم سيد السماء» . لذلك لاسبيل الى الشك فى انه الاله الشمس . والادلة كلها تثبت انه الاله الشمس وهو المقصود بما كتبه انتى من اشراف دشاشة حين قال : «ان كل من يعمل شرا لهذا القبر او يخربه او يمحو ما كتب عليه سيحاكمه الاله العظيم سيد الحكم فى المكان الذى يقام فيه العدل .» ولا يمكن تلمس او زوريس وتعاليمه الادبية وكونه قاضيا عادلا يقضى بين من يقفون امام عرشه بعد الموت فى ذلك العصر . لان العناصر التى نشأت عنها هذه المعتقدات لم تكن قد وجدت بعد وهى

لم تقم الا فى الدولة الوسطى بعد انتهاء عصر الاهرام . اذن نخلافا للشائع كان الاله الشمس هو اول ناصر للقيمة الادبية والقاضى الاعلى بعـد الموت . وبعد هـذا العصر بالف سنة ارتفع اوزوريس لانتصاره على ست فى مدينة عـين شمس وفاز على كل اعدائه بحق فصار بذلك هو القاضى الادبى الاعلى .

نعم لقد كان هذا التطاع صوب مستوى ادبى رفيع حدوده . ولكن علينا الا ننسى ان هـذا العصر يرجع تاريخه الى خمسة آلاف سنة او اكثر . فرأينا كيف ان اهم انتصارات الانسان فى ذلك العصر السحيق كانت فى جهاده فى الناحية المادية . وعلى الرغم من انه خرج منتصرا انتصارا باهرا فى جهاده هذا فقد وجد نفسه وسط عوامل عديدة غامضة تتجاذبه . ولكنه استطاع ان يلمح خلالها بريقا جديدا يفوق بهاؤه كل ماتوصل اليه من قبل — بريقا جعل للحياة قيمة غـير قيمتها الاولى . بيد انه يجب الا ننسى ان حكم «مآت» ظل فى الغالب حلما كريما ورؤيا من النور يتغنى بها الحكماء ويتطلع اليها المصلحون وان العمل طبقا للقيمة الجديدة التى سطع عليها بريق مآت كان قاصرا على الخاصة . ومع ذلك فمما لاشك فيه مطلقا ان التغيير الذى طرأ على الفكر البشرى مذاك كان تغييرا حاسما اذ سرت العقيدة القائلة بان حالة الانسان بعد الموت تتوقف على قيمته الادبيـة فى هذه الحياة الدنيا . ولابد ان ادراك هذه الحقيقة كان ادراكا فعالا لان فرعون نفسه الذى كان فوق القضاء البشرى صار بمقتضاه عرضة لان يحكم عليه قاض سمائى يتطلب منـه ما يتطلب من غيره من بر وعدل . ولم تتجل هذه الحقيقة بروعتها دفعة واحدة بل انه يمـكن تلمسهـا وهى تنمو نموا مطردا فى ملفات الاهرام الى ان نفذت سطوتها حتى على الفرعون نفسه . ومن الشيـق ان نجد فى احدى ملفات الاهرام هذه الكلمة عن الملك وهى : «هذا الملك ييى مبرر» فى حين انه توجد نسخ اخرى تتعلق بملكين آخرين لم تذكر هذه العبارة عنهما مـع ان الجزء الذى وردت فيه موجود فى كلتا الحالتين . ففى مدة تبلغ مابين ستـين الى ثمانين سنـة شعر الناسخون بوجوب كتابة جملة التبرير هذه .

وليس من السهل الاطلاع على التقدم النفسى والفكرى لجنس تفوق آثاره المادية آثاره المعنوية . ومن السهل جدا الخطأ فى تفسير التراث الفكرى الذى يتضاءل امام عظمة المخلفات المادية الا انه

وجد وراء هذه المخلفات المادية الضخمة قوى هائلة من التطلع ومن الفكر البشرى ليس من السهل تلمسه على حقيقته . ولعل شاعرنا شوقى كان يشير الى هذه الحقيقة عندما قال فى قصيدة ابى الهول

وسرك فى حجبه كلما — اطلت عليه الظنون استتر

ومع ذلك فلا يمكن التهرب من الوصول الى النتيجة وهى عظم التطور الفكرى واثره فى النفوس . وهذه النتيجة تثبتها بوضوح المقارنة بين ضخامة اهرامات الجيزه وعظمة احجامها (وقد شيدت فى عصر الاسرة الرابعة) وبين صغر حجم القبور التى خلفتها الاسرتان الخامسة والسادسة ولن يمكن ان تكون الاسباب السياسيه هى وحدها الدافع الى هذا الانقلاب الفجائى المدهش . وانما السر فى هذا الانقلاب هو ان اهرامات الجيزة الشامخة ترمز الى الجهاد بواسطة الوسائل المادية الهائلة الضخمة للتغلب على عوامل الفناء لضمان الخلود لجسم فرعون بحفظه على ممر الدهور فى كل ما اتصل بروحه من مادة فى حياته . و الاهرامات الشامخة المنيفة ليست اعظم واروع ما خلفه العالم القديم كدليل قاطع على النظام الثابت الدعائم والناتج عن الجهود الموحدة فحسب بل انها شواهد صامتة بليغة فى صمتها عن أعظم مجهود بذله الانسان ليحصل على الخلود بمجرد الوسائل المادية . وماكان ممكنا أن يستمر النزاع مع عوامل الفناء بهذه الجهود الضخمة الشامخة بلا انقطاع لاسباب مادية . والى جانب هذه الاسباب المادية أضيفت أسباب أخرى قوية غير المادة والسياسة فشعور القوم اذ ذاك بوجوب دفن الملفات البردية (المعروفة الآن بملفات الاهرام) دليل قاطع على انهم كانوا منذ ذلك العهد قد بدأوا يشعرون بضرورة الوسائل غير المادية . وأعظم خطوة حاسمة فى تاريخ التطلع البشرى هى الادراك ادراكاً قاطعاً بالالتزامات الادبية وبالتعرض لحكم الاله القاضى الاعلى فيما بعد الموت . فقد أدت هذه الخطوة الى الارتكان على القوى النفسية الداخلية واحلالها المحل الاول فى تقدير الشخصية بدلا من الاتكال على العوامل المادية الخارجية . ولاول مرة اشرق على الذهن البشرى نور الخلود كغاية يصل اليها الانسان عن طريق العوامل النفسية الداخلية فتحول الاهتمام بالمادة ومزاياها الى الصفات البشرية النفسية المعنوية . وبهذه الخطوة تقدم الانسان أيضا الى فكرة تقدير الفرد كوحدة قائمة لها أهميتها الخاصة بدلا من أن يكون نكرة وسط الجماهير

فرأى الحكماء رؤيا عظيمة هى هذه القوى الكافية فى النفس البشرية وما فى هذه النفس من ممكنات مبدعة . ويسمو تطاعهم سموالهيهم لانه صار رمزا لكل هذه المثل العليا التى لمحوا قبسها وصاروا يصورونه كالحاكم الاعلى الذى يسوس الامور بحكمته وعدله ويزن النـــاس ماديا ومعنويا لخير الشعب المصرى .

ايريس حبيب المصرى

مهمة الشباب ورسالة الجيل

للدكتور صبري جرجس

تجتاز مصر الآن مرحلة من أدق المراحل فى حياتها الفكرية والاجتماعية هى مرحلة الانتقال من جمود الحياة الشرقية الى النشاط الذى يقتضيه اصطناع الحياة الغربية . وقد طال الزمن على هذه المرحلة ولما نتقدم فيها تقدما محسوسا . ولست فى تقرير هـذا الرأى من المتشائمين فان ما نراه من علامات التقدم فى مختلف نواحى الحيـاة عندنا ليس الا بهرجا لا يتناول إلا المظاهر الخارجية فقط ولـكنه لا يمس حياتنا فى الصميم .

ونحن لا نجهل أن حركة الدعوة الى التجديد قد قوبلت بكثير من الاعتراض والانكار بل لقد حوربت فى بعض الاحيان محاربات سافلة ، تارة باسم الدين وتارة أخرى باسم الاخلاق والتقاليد واسندت الى القائمين بها شتى التهم والنقائص . فلم يخل واحد من تهمة كالالحـاد أو المروق من الوطنية أو الخروج على الآداب والتقاليد أو الدعوة الى الاباحية والاستهتـار أو ما الى ذلك .

والواقع ان الحركة الرجعية قد وجدت فى مصر أرضا خصبة . وليس هذا بعجيب فى بلد يسود عقول الغالبية من أبنائه ظلام دامس ويحيون حياة تـكاد تشبه فطرة الاقوام البـدائية . ومن هنا كانت مهمة الداعين الى التجديد عسيرة وكان تقـدمهم صعبا بطيئا . غيرأنه اذا جاز لنا السكوت على هده الحال فيما مضى فليس لنا هذا العذر الان وامامنا من عبر الحادثات كل يوم ما يفرض علينا الطريق الذى يجب أن نسلكه اذا شئنا الحياة والبقاء فى وسط هذا الصراع الدائم بين حيوية الحضارة الغربية وجمود الحياة الشرقية .

* * *

وأول مايجب أن نؤمن به هو أن خير النظم للحكومة هو النظام الديمقراطى الذى يقرر أن الأمة هى مصدر السلطات والذى يجعل لها وحدها حق الرقابة على أعمال الحكومة . ولسنا نقول أن الديموقراطية بحالتها الراهنة هى المثل الاعلى لنظم الحكم ولكنها بغير جدال خير النظم القائمة الآن ، واذ كانت لها بعض العيوب فانما يرجع هـذا فى الاغلب الى الشعوب التى لم يكمل نضجها الذهنى بعد لا الى النظام نفسه . ولا سبيل الى اصلاح هـذه العيوب الا بترويض الشعب على حكم نفسه حتى يستقيم له الامر فى النهاية .

وسيجعلنا هذا الايمان بالديموقراطية أرحب نظرا الى الدنيا وأقل تعصبا للروح القومية وبذلك لن نرى أمتنا هى كل شىء فى هذا الكون بل سنراها اقليما فى الوطن العالمى لا تلهينا مصالحه عن حقوق غيره من البلدان . ومن ثم سينزع بنا هذا التفكير العالمى الى حب السلام ومقت الحروب لاننا سننظر الى الناس جميعا كاخوة فى الانسانية بغض النظر عن اختلاف الوطن والجنس والدين ؛ وسنرى فى الحضارة تراثا عظيما خلفه الذهن البشرى على مر العصور والاجيال وعلينا قسط من المسئولية فى تدعيمه والمحافظة عليه .

ثم ان هذا الايمان بالديموقراطية سيجعلنا من ناحية أخرى نمقت الديكتاتورية أو الاستبداد فى أى صورة من الصور، وسيجعلنا نرى فيهما نوعا من الاذلال لمعنى الكرامة الانسانية وقتلا للحريات فى مختلف مظاهرها . ومن ثم فاننا سنعدهما بلاء على الامة التى تصاب بهما وخطرا دائما على الحضارة يجب الا نعرف اللين أو الهوادة فى مكافحتهما، بل يجب أن تكون هذه المكافحة مكافحة ازالة وافناء

واذا ذكرنا الاستبداد فانما يجب أن نذكر أيضا أنه سند الرجعية وحاميها بل هو الوكر الذى تبيض فيه وتفرخ . ونظرة واحدة الى عهود الاستبداد التى مرت بمصر تفضح لنا بأجلى بيان عن مدلول هذه العبارة ومرماها . فان الاستبداد هو عدو الحرية ، والحكم الاستبدادى لايطيق أن يسمع أو يرى الدعوة الى الحرية ؛ وكذا الرجعية . ومن ثم كانت عصور الاستبداد متميزة دائما بتسلط الروح الرجعية وطغيانها على مرافق الحياة فى الامة . ولما كانت الروح الرجعية لاتعرف المرونة او التسامح فانها تبطش بخصومها بطشاً وتنكل بهم تنكيلا وتقسو فى محاربتهم اشد القسوة . وهذا يؤثر على ضعاف العزم وضعاف الذهن من الجماهير ، لان الاولين يهابون بطشها ولايجرأون

على محاربتها فينحازون اليها ولانها تجذب الآخرين بما تلعب على اذهانهم من ايحاء القوة والنصر وتؤلف فيهم عقداً نفسية يصعب عليهم التخلص منها فيما بعد .

والرجعية هى روح أو نزعة واحدة وان اختلفت مظاهرها وتعددت مراميها . واقواها فى مصر واشدها خطرا هى الرجعية التى تتخذ نعرة «العروبة» رمزاً او عنواناً لها . فاننا لانزال مع الاسف نرى هذه الدعوة الى العروبة ينادى بها فى مصر ، ولانزال نسمع مثل الفاظ «الوحدة العربية» والجامعة العربية » يهجس بها البعض كما يهجس المرضى بخيال كاذب ، ولانزال نشاهد من يقولون باحياء الادب العربى كأنما يريدون منا ان نرجع بحياتنا الفكرية الى الوراء مئات السنين ، ولانزال نسمع من يمجدون اصطناع الاساليب العربية القديمة فى الكتابة وهى الاساليب التى لاتستطيع ان تعبر عن شىء لانها توجه كل عنايتها الى بهرجـة اللفظ دون الالتفات الى المعنى .. اقول اننا لانزال نسمع من يدعون الى هذه الدعوة .. فما معنى هذا وما دلالته ؟

معناه اننا قوم لانريد ان نفهم الحقائق كما ينبغى ان تفهم . فان الادراك الصحيـح للحقائق يقول لنا اننا مصريون فقط ولسنا من العرب او من غير العرب . فالدعـوة الى العروبة هى اذن دعوة الى التخلف والجمود . والقول بالانضمام الى الوحدة العربية هو حكم علينا بالانفصال عن الحضارة الاوربية — اى حكم علينا بالموت والفناء . والامر بعد لايحتاج الى اكثر من عرض سريع لحالة العالم الآن ، فالغرب يمثل العلم والقوة والعزة والمناعة والسيادة والنشاط والحرية والثروة والشرق يمثل الجهل والضعف والاستكانة والتواكل والاستبداد والفقر . والعقلية الاوربية هى عمل ونشاط وتدبير مستمر ، اما العقلية الشرقية فانها عقلية قدرية تلتذ الكسل والخمول تقبع فى انتظار قضاء الله وقدره . والامتان الشرقيتان اللتان شذتا عن الشرق — اليابان وتركيا — هما الاستثناء الذى يؤيد القاعدة . فقد رأت اليابان انها اذا شاءت الحياة فلا بد لها من اصطناع الحضارة الاوربية والتسلح بسلاحها ، فتوجهت بكل جهودها الى هذه الغاية ولم يمض زمن طويل حتى رأيناها قد تحولت هذا التحول الكبير الذى يكاد يشبه الطفرة فى مداه وشموله .. تحولت من امة شرقية فقيـرة خاملة لايكاد يشعر بوجودها احد الى امـة قوية عزيزة مرهوبة تتحدى العالم باسره وتتهدد اسواقه بمنتجاتها . والى جانبها بقيت الصين — وهى اضعافها فى مساحة الارض وعدد السكان ومقدار

الثروة التي يمكن ان تستغل — بقيت متمسكة بشرقيتها راكنة الى عظمة ماضيها موقرة تقاليدها سابحة فى احلام الافيون لاهية عما يجري فى جارتها حتى استيقظت الآن على كيانها وهو مهدد بالفناء وعلى ارضها وهى تقتطع منها جزءا جزءا فى كل يوم . وقد ادركت العلة فى ذلك ولكن بعد فوات الوقت .

و نعود فنقول اننا لانخدم اى غرض ولاننفع انفسنا بهذا التمسك بالشرق . وقد لبثنا زمنا طويلا — ولانزال مع الاسف — ونحن نشعر بفخار يشبه الزهو من وصف مصر بانها زعيمة الشرق . ولا جدوى لنا من هذا ولا خير لنا فيه ، واحرى بنا ان نعلم انه مثل لقب المفلس يحمله من الاعباء مالا طاقة له به ويحوطه بجو من الكبرياء الكاذب الذى يضر ولا ينفع . وانه لأجدى علينا ان ننسى هذه الزعامة الزائفة وان ننظر الى الدنيا بغير هذه العين اللاهية حتى نستطيع ان نتزود منها بما ينفعنا دون الاكتفاء بهذا البهرج الكاذب والاقتصار على الحياة فى هذه الاحلام المتصلة من العظمة المزيفة .

* * *

والرجعية كما قلنا هى روح أو نزعة لاتنفصل من صاحبها ولذلك فليس يمكن للمرء ان يكون مجددا فى ناحية ورجعيا فى ناحية اخرى . ومن ثم فاننا نرى ان اولئك الذين يدعون الى التمسك بالشرق وينادون بالعروبة هم انفسهم الذين يحملون لواء الرجعية فى الاجتماع .. اى هم الذين ينادون بحجاب المرأة ومنع الاختلاط بين الجنسين . وانا هنا لا اوجه القول الى هؤلاء لان الكلام معهم لايجدى ولا يعدو ان يكون حديثا معادا ولكني اريد ان الفت النظر الى ظاهرة لاتجدى معها المكابرة ولا ينفع فيها الانكار : تلك هى اننا حينما نجيل البصر فلن نجد امة متمدينة أو شبه متمدينة — فى الشرق او الغرب — يتحجب نساؤها ويعيش فيها الجنسان احدهما بمعزل عن الآخر . والشعوب التى تمارس الحجاب وتقضى بعدم اختلاط الجنسين هى شعوب ضعيفة خائرة متخلفة .

فهل نريد ان نبقى كذلك على الدوام ؟ واى غاية نخدمها من استبعاد اثر المرأة ونشاطها فى مختلف نواحى الحياة عندنا ؟ ان الداعين الى الحجاب لايكادون يجدون عذرا عنه غير التمسك بالتقاليد، فما هى هذه التقاليد ؟ اليست مجموعة من العادات درج عليها الناس بعد أن قضى بها العرف السائد

فى زمن خاص ولدواع خاصة ؟ فهل يكفى هذا للتمسك بها حتى بعد وضوح فسادها واضرارها ؟ ينبغى أن ندرك الآن ان هذه التقاليد — من اى نوع كانت — التى تعطل الحرية الذهنية للامة وتعوقها عن متابعة التطور الذى ينال الحياة الانسانيـة فى مختلف النواحى وتؤدى بها فى النهاية الى التخلف والجمود هى اشد خطرا على الامة من الوافدات والطواعين ، ومكافحتها هو اول واجب على من يريد لامته الحياة والبقاء .

وإذا استطعنا ان نحتمل سماع هذه النغمة المنكرة عن حجاب المرأة ومنع اختلاط الجنسين من تلك الفئة التى لاتطيق الحياة الا فى ظلمة الماضى فاننا لانستطيع ان نسيغها باى وجه ولأى علة وهى تصدر من بعض شباب الجامعة . اننا لنأسف اذ نقول أن الجامعة المصرية حتى الآن لم تؤد الرسالة المنتظرة لمعنى الجامعة ولم تعد ان تكون مجموعة من المدارس العليا اجتمعت تحت اسم واحد ، كما نأسف أن نقول انها لم تشترك بأى أثر محسوس فى أى فرع من فروع البحث العلمى الذى من أجله أنشئت الجامعات . وقد نستطيع مع شىء من التجاوز أن نلتمس لها العذر عن ذلك فيما مر بمصر من مختلف التقلبات والاحداث ولـكننا لانستطيع قط أن نتغاضى عن مثل هذه الروح الخبيثة تبدو من شباب هم كل أمل مصر وكل عمـادها وذخرها المستقبل . واذا كان الشبـاب وهو رمز الحيوية والمرونة الذهنية وعلم التجديد والحرية يرى أن اختلاط الجنسين حتى فى معاهد التعليم والدراسة العالية هو اثم يجب أن يرفع فما اتعسنا به وما أضيع رجاؤنا فى المستقبل على يديه !

* * *

والصحافة فى مصر لها أيضا شأن لايسر ولايروق . والمشتغلون بها هم فى بعض الاحيان طائفة من الجهال أو من المرتزقة الذين لايرونها الا عملا من أعمال التجارة والربح . ومن هنا انتشار هذا النوع من الصحافة الارجافية التى تعتمد على بهرج المظهر دون العناية بقيمة المادة التى تقدمها لقرائها والقارىء المصرى مع الاسف كالتلميذ الصغير يريد أن يلهو بصحيفته ويتسلى منها وهو كالطفل ، حاسة الفضول عنده قوية . واشباع هذا الفضول ميسور فيما يقرؤه من أخبار الفسق وأنباء الزواج والطلاق وغرائب الفضائح الخلقية التى تكاد تكون المادة الوحيـدة لبعض الصحف فى هذه الايام . ومن ثم فان الصحفى الجاهل الذى لا يستطيع أن يقدم لقرائه غير هـذه المادة الرخيصة ، والصحفى

الساقط الذى لايعرف كرامة مهنته فيصرف كل همه الى تمليق نواحى الضعف فى نفوس قرائه هو الذى يصادف الرواج فتتوطد صحيفته ويقبل عليه الغنى واليسار . أما الصحفى الامين الذى يشعر بأنه ينبغى أن يقف من قرائه موقف المعلم — بل المؤدب — من تلميذه .. الذى يؤمن بالتجديد والحرية ويدعو اليهما فى حرارة وايمان ... الذى يضع امام عينيه برنامجا اصلاحيا شاملا لكل ما يراه من نواحى الضعف أو النقص فى حياة أمته .. الذى يأنف من تملق اهواء قرائه وأشباع فضولهم .. أما الصحفى الأمين الحى الضمير الذى يشعر بكرامة مهنته وشرف رسالته وعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه .. أما هذا الصحفى فانه لايستطيع أن يبقى طويلا على المنافسة فى ميدان تغمره «البضاعة» الرخيصة . وهو فى هذه الحالة أما ان يقبل التحول بصحيفته الى هذا التهريج السخيف أو ينسحب من الميدان مؤثرا الاحتفاظ بكرامته بعيدا عن مثل هذا انتهتك والابتذال .

وليس العيب فى هذه الحالة هو عيب تلك الفئةمن المشتغلين بالصحافة و المتطفلين عليهم وحدهم ولاهو عيب حكومات الاستبداد التى كان من أول همومها أن تحارب حرية الرأى بكسر الاقلام الحرة وتعطيل الصحف التى تنادى بالحرية وتدعو اليها .. وانما هو أيضا عيب القارىء المصرى الى حد كبير . فان القراء فى مصر — الا فئة قليلة — لايحتملون سماع ما يخالف العقائد والآراء التى درجوا عليها ويعرضون عنها دون بحث أو مناقشة أو تفكير ظاهر أو عميق . وهم بذلك يحرمون أنفسهم من تلك المرونة الذهنية التى هى شرط لازم من شروط الانسان المثقف والتى تتمثل فى أبسط مظاهرها فى احتمال الرأى الجديد أو الرأى المخالف والوقوف عنده ومحاولة نقده لمعرفة مافيه من نواحى القوة والضعف . وانى لأذكر بهذه المناسبة اننى لخصت منذ شهور كتابا للفيلسوف المعروف «برتراند روسل» عن ارائه فى الزواج والآداب ، يضع فيه عرفا اخلاقيا جديدا استلهمه بغير شك من حضارة البيئة الصناعية . ولم يخطر ببالى وانا اقرأ هذا الكتاب او اقوم بتلخيصه ان ادعو فى مصر الى مثل الاراء التى يدعو اليها برتراند روسل فى انجلترا . وانما قصدت ان اعرض امام القارىء المصرى نموذجا للاتجاهات الادبية الجديدة التى بدأت تغزو اوربا من اثر استقرار الحضارة الصناعية فيها كما اردت ان اقدم له طريقة البحث والمناقشة والاستقراء والاستنتاج ومصارعة الحجة بالحجة فى موضوع شاق عسير لانه يتناول نقد الاداب الاجتماعية التى درج الناس عليها منذ

عشرات الاجيال . فماذا عساني لقيت ؟ لم يقرأ هذا المقال واحد من الناس الذين اعرفهم الا وجاءني او كتب الى محتجاً ومعترضاً لا على الآراء الواردة فيه فانا اعلم ان لكل انسان الحق في ان يعتنق من الرأي ما يراه اصلح من غيره .. ولكن على انني اجترأت على نشر هذه المبادىء الجديدة المخالفة لقواعد العرف الأدبي السائد في مصر مهما يكن غرضي من نشرها .. ومهما يكن فيها من حوافز التفكير والنقد او مواضع الملاحظة والاعتبار . وكما قلت ليس لهذه الحالة من سبب الا ان القارىء المصرى تنقصه تلك المرونة الذهنية التي تجعله يستخرج الفائدة من الرأى الموافق ، كما تنقصه تلك الرحابة في التفكير التي تجعله يحترم الرأى المخالف والرأى المؤيد على السواء .

لقد اهتمت نفسي يومئذ .. ولقد تساءلت كثيرا : اذا كنا في مصر لا نريد ان نتثقف من مثل برتراند روسل فممن عسانا نتثقف ؟.. واذا كنا ننكر ما ينتجه ذلك الذهن العبقرى فهل نقنع بان يكون غذاؤنا الذهني قاصرا على مثل هذا التهريج المبتذل الذى تفيض به صحفنا في هذه الايام؟

واذكر بهذه المناسبة ايضا حادثة اخرى تدل على مدى ما ينال به المتطفلون على الادب والعلم سمعة مصر من التشويه والاذى . فقد قرأت في احدى المجلات منذ اكثر من عامين مقالا لأحد الكتاب عن فرويد انكر فيـه اراءه وحاول ان ينقدها فماذا قال .. كان كل مافي استطاعة ذلك الكاتب من فهم فرويد ان يكتب مقالا طويلا حشاه بعبارات مسرحية مبتذلة من مثل «انه يهذى ولا يقول الاهراء حتى ان بدنه (اى بدن الكاتب) اقشعر وشعر رأسه انتصب واحمر وجهه خجلا مما قرأ ..» مع القدر اللازم من استغفار ربه وشكره على ان اراء فرويد لاتجد مستجيبين اليها في مصر .. ويمضي في مقال يستغرق بضع صفحات على هذا النمط الممجوج .. فهل نستطيع ان نتمثل في اى بقعة من بقاع الدنيا تطفلا على العلم وتهجما على مقامه أكثر وقاحة من ذلك ؟ اننا لانوجه اللوم الى الكاتب لاننا نعلم انه جاهل وليس مما يضير مثله الا يستطيع فهم عالم فذ مثل فرويد ولكننا نأسى لسعة هذا البلد أن يلهو بها على هذا النحو الشائن واحد من ادعياء العلم والادب ... ونأسى على ان يكون من شأن الصحافة في مصر ان تقبل نشر هذا الجهل المتهتك في وقت يملأ فيه اسم فرويد ارجاء العالم كله وتتأهب الدنيا باسرها للاحتفاء بالعيد الثمانين لميلاد ذلك الذهن الذى يعد من مفاخر الانسانية بعد ان فرض صاحبه اسمه على التاريخ فرضاً

عظمة الاسلام

من محاضرة ألقاها الدكتور زكى ابو شادى فى ندوة الثقافة بالاسكندرية

نشأت منذ حداثتى فى كنف أسرة اسلامية عريقة ووجدت من والدى محمد أبو شادى بك المحامى إماما متفقها فى الشريعة الاسلامية وشاعرا متصوفا ، فحضرت عليه الكثير من الدروس الاسلامية ، وكذلك على أستاذى الشيخ عبد القادر المغربى كما انتفعت بصحبة الامام السيد محمد رشيد رضا والشيخ طاهر الجزائرى وغيرهم من أعلام المسلمين المستنيرين ؛ الى جانب انتفاعى بمكتبة والدى الزاخرة بالتصانيف الاسلامية . وقد أقنعتنى هذه الصحبة منذ حداثتى بعظمة الاسلام وبأن فكرته الشعوبية فكرة انسانية عظيمة ، فعملت منذ شبابى على نصرة السيد محمد رشيد رضا فى مدرسة « الدعوة والارشاد » بالقلم واللسان والمال ، وكتبت الى مجلة « المنار » فى شأن ذلك منذ ربع قرن إبان وجودى فى انجلترا . وها قد درجت السنون وخط الشيب رأسى وما زلت على هذه العقيدة التى أترجم عنها بما أبذله من جهد لخدمة نقاء الاسلام وابراز أصوله الجميلة وطرح الزيف والقشور الرثة المشوهة لجماله ، مما أجملته سابقا فى دراساتى الاسلامية التى تقوم على العقل والعلم ، ألا وهى : مذهبى ، عقيدة الالوهية ، حقوق الانسان ، رسالة محمد ، المال فى الاسلام ، لماذا أنا مؤمن ؟ — وانى لمحدثكم عن العناصر الاساسية التى تتألف منها عظمة الاسلام والتى تجعلنى أرحب بخدمته فى ذاته ، الى جانب كونه دين الاغلبية من مواطنى والدين الرسمى لبلادى ؛ وإن لم أكن من أنصار الخلط بين الدين والسياسة وأوثر فصل الدين عن الدولة لمصلحة كليهما .

الاخوة الانسانية

أشار سيد أمير على فى مقدمة كتاب الميجور ليونارد الى أن الاوربيين كثيراً ما يخطئون فيصورون فكرة الأخوة الاسلامية تصويراً سيئاً ، مع أنها أخوة إنسانية لاتعرف التمييز فيما بين الأجناس والالوان والمراتب ، مما اعترفت به لجنة إصلاح دستور الهند فى مقدمة تقريرها سنة ١٩٣٣ — ١٩٣٤ ، وقد توسع المؤلف فى هذا الباب وأنصف الاسلام بكتابه البديع الذى تناول فيه أخلاق النبى عليه الصلاة والسلام ومبادئه وقيمة عمله الانسانى . وممن أدوا مثل هذه الخدمة من مواطنينا الأفاضل محمد بدر بك فى كتابه الانجليزى القيم « حقيقة الاسلام » الذى أصدره فى سنة ١٩١٠ وطبعته مطبعة المعارف بالقاهرة .

وقد أحسن الميجور ليونارد باشارته الى التعاطف بين الاسلام والمسيحية (بل واليهودية أيضاً — أى بينه وبين الديانتين السماويتين العظيمتين) ، ومعنى هذا التعاطف عملياً المعاونة على إيجاد أخوة انسانية ، وهو يعتمد على القرآن الكريم وحده لاثبات ذلك . وانى أعتقد أن روح الاسلام لاتنافى إنشاء عصبة للاديان لخير الانسانية ، ولتكون سنداً روحياً لعصبة الامم .

و « الكومنولث الاسلامى » ماهو الا نظير « الكومنولث البريطانى » الذى خدم السلام العالمى والحضارة أى خدمة . وليس هذا الكومنولث الاسلامى عدواً للوطنية فيما أرى ، فان القوميات مسائل داخلية ، وكل ماتطالب به الجامعة الاسلامية احترام الاخاء والتعاون بين المسلمين فهى عنصر من عناصر السلام والرقى لو فهمت فهماً صحيحاً ، وليست علة للتعصب الأعمى ضد غير المسلمين ، فان هذا التعصب فى ذاته يخالف روح الاسلام بتاتاً ، ولا عبرة بالتفاسير المريضة التى يتشدق بها الفقهاء الجاهلون .

حرية الفكر

إن الاسلام دين اقتناع لادين اتباع ، وهذا المبدأ من أصول عظمته ، ولذلك ورد فى القرآن

الكريم « إن عليك الا البلاغ » وجاء « انما أنت نـذير » وفى القرآن كثير من آيات الحوار والمقارعة بالمنطق والدليل ، كما فيه مافيه من التنفير من التقليد وعدم التفكير ، مثل قوله تعالى : « ولاتقف ماليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » وقوله « إنما يتذكر أولو الالباب » . والاسلام خلافا لما يشاء الجهال والطغاة يأبى الا كراه فى الدين . قال تعالى : « فذكر ، إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » وقال : « فهل على الرسول الا البلاغ المبين ؟ » ، وقال : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟! » وقال : « نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ، ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق » .

وهذه الروح الالهية تتفق والحياة الدستورية كما ينتظر تمام الاتفاق : فقد نصت المادة الثانية عشرة من دستور المملكة المصرية على أن « حرية الاعتقاد مطلقة » كما نصت المادة الرابعة عشر منه على أن « حرية الرأى مكفولة ، ولكل إنسان الاعراب عن فكره بالقول أو الكتابة أو بالتصوير أو بغير ذلك فى حدود القانون » ، كما أن حرية القيام بشعائر الأديان والعقائد تحميها الدولة طبقاً للعادات المرعية فى الديار المصرية على أن لايخل ذلك بالنظام العام ولا ينافى الآداب ؛ وذلك بموجب المادة الثالثة عشرة من الدستور ، كذلك المادة الثالثة تنص على أن المصريين لدى القانون سواء . وهم متساوون فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة لاتميز بينهم فى ذلك بسبب الاصل أو اللغة أو الدين . وكل هذا مما يتفق والنزعة الانسانية للاسلام . وليست المادة ١٤٩ من هذا الدستور التى تنص على أن الاسلام دين الدولة واللغة العربية لغتها الرسمية بالتى تعني تقرير أكثر من المظاهر الرسمية ، فهى لاتتعارض مع حقوق الأخوة الوطنية ولاتقف بأى حال ضد حرية العقيدة والفكر . ومن يريدون من المشايخ أو أشياعهم عكس تفسير هذه المادة التى لاتحتاج الى تفسير ، وذلك للقضاء على الحكم الدستورى المدنى ، إنما يعملون لخدمة صوالحهم لالخدمة الاسلام نفسه الذى أعتقد أن خدمته الحقة هى الابتعاد به عن مزالق السياسة وإنزاله منزلة القداسة الدينية فحسب ، وحاشا للاسلام أن يعمل على تمزيق القومية بدل تكميلها ، أو على غمط الحقوق باسم الدين أو على

مقاومة حرية التطور وهو الذى يسع كل جديد من الآراء العلمية ، فكل هذا التقييد من عبث الفقهاء والمفسرين والمغرضين ولاشأن له بالاسلام الصحيح الذى يعنينا وحده . والمادة ١٤٩ غير قابلة للتجزئة . كما أن الدستور برمته غير قابل للتجزئة . وكما أن النص على أن اللغة العربية هى لغة مصر الرسمية لايعنى اضطهاد اللغات الأخرى ، فكذلك النص على أن الاسلام دين الدولة الرسمى لايعنى اضطهاد الأديان الأخرى أو غمط أصحابها حقوقهم واتخاذ ذلك سياسة للدولة . تقول المادة السادسة عشرة : «لايسوغ تقييد حرية أحد فى استعماله أية لغة أراد فى المعاملات الخاصة أو التجارية أو فى الأمور الدينية أو فى الصحف والمطبوعات أيا كان نوعها أو فى الاجتماعات العامة» ، كما تنص المادة الثالثة السالفة الذكر على أن المصريين سواء لدى القانون فى التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة لا تمييز بينهم فى ذلك بسبب الاصل أو اللغة أو الدين.

ومن كل هذا ترون أن الروح الاسلامية — روح الاختيار المطلق والحرية التامة فى العقيدة والفكر والتسامح مع المخالفين — مرعية تماما فى وضع الدستور المصرى . واذا لم تلاحظ هذه المواد الملاحظة الواجبة فليس الذنب فى ذلك واقعا على الدستور ولا على الاسلام ، وانما يقع على تهاون المصريين أنفسهم فى مبلغ الحرص على حقوقهم الفردية ؛ وستكون لذلك عواقب خطيرة لامحالة لا أملك سوى التحذير منها بروح المسلم الوطنى الصادق الاسلام والصادق الوطنية معاً .

وازاء هذه الحقيقة لايوجد ما يمنع أى مصرى من نشر آرائه وعقيدته كيفما كانت وأيا كان نوعها مادام لايخل بالنظام العام ولا ينافى الآداب . ولا يمكن للنيابة ولا لغيرها خلق تكأة وهمية من ذلك ؛ فالاخلال بالنظام ومنافاة الآداب يجب وقوعهما قبل توجيه أى اتهام . وتعلمون أنى نصير المنبر الحر فى غير تحفظ سوى الترفع عن القذف وما اليه ، وقد سبق لى أن نشرت فى مجلة «أبوللو» الشعرية نقداً شديداً بل قبيحاً موجهاً الى ، ثم رددت عليه بعد ذلك ، وكل هذا حرصاً منى على حرية الفكر ولو أسىء استعمالها ضدى . وما أبيحه فى الأدب أبيحه فى الدين والعلم وفى كل مجال للفكر الانسانى . وان هذا السلوك ليتفق مع روح الاسلام كما يتفق مع الديمقراطية الحديثة . وعلى هذا ليس لنا أن نخاف مما ينعت بالأدب الالحادى ، فانما يخاف منه العجزة الذين لايستطيعون الرد عليه وانما علينا أن نقارع الحجة بالحجة فى أدب واتزان وكرامة ، فان الدين نفسه وحرية الفكر يستفيدان

يقول الاديب المعروف الاستاذ توفيق الحكيم فى قصته البارعة « يوميات نائب فى الارياف » مقارنا بين نظرة الجد التى ينظر بها ولاة الامور فى اوربا الى حياة سواد الشعب وبين نظرة الاستهتار والعبث عندنا » انهم هناك ينظرون الى ارواح الناس بعين الجد . اما هنا فلا احد يأخذ ذلك على سبيل الجد . وان الاموال لتنفق هنا بسخاء فى التافه من الامور ، وأما اذا طلبت لاقامة العدل اوتحسين حال الشعب فانها تصبح عزيزة شحيحة تقبض عليها الاكف المرتجفة كأنها ستلقى فى البحر هباء . ذلك ان « العدل » و« الشعب » ... الخ كلمات لم يزل معناها غامضاً عن العقول فى هذا البلد . كلمات كل مهمتها ان تكتب على الورق وتلقى فى الخطب كغيرها من الالفاظ والصفات المعنوية التى لايحس لها وجود حقيقى ... » فاى انسان يعيش فى مصر لايشعر بمرارة الحقيقة فى هذه الكلمات ؟ وهل نريد دليلا ابلغ من هذا لنعلم اننا لا نزال نحيا ونفكر بهذه العقلية الشرقية التى لاتعنى الا ببهرج المظاهر ولوكان من ورائها الخراب والموت ؟ اننا لانخدع الا انفسنا اذا حسبنا اننا فى عداد المتمدنين. وحسبنا فى هذا ان نقول واثقين: لو ان شخصا اجنبيا جاء مصر وهو لايعرفها ورأى القاهرة ثم خطر له ان يجول فى الريف لكذب نفسه ولما استطاع ان يصدق انه كان ينتقل بين ارجاء بلد واحد ويتحدث مع ابناء امة واحدة .

ليس فى الدنيا باسرها امة متمدينة أو شبه متمدينة يعيش كبراؤها متنعمين بكل مايمكن ان تمدهم بها حضارة القرن العشرين بينما يعيش السواد الاعظم من اهلها — ومموليها — فى فطرة تشبه فطرة العصور الحجرية . . . وليس فى الدنيا باسرها امة متمدينة يعيش الغالبية من ابنائها فى هذه الفاقة الجسمية والذهنية البالغة . . . تفتك باجسادهم عوادى المرض وتسود عقولهم ظلمة الجهل وتتكسر نفوسهم على ذل المسغبة ويحيون هذه الحياة التى هى عار على المعنى الانسانى وعلى القيم الانسانية فى كل زمان ومكان .

لقد الفنا هذا النفاق الاجتماعى على مر السنين واسغناه وكلفنا به حتى لقد اصبح جزءا من برنامج الحياة عندنا واصبحنا لانشعر بأى غضاضة على نفوسنا منه . . . ولكن هذه الحالة ستأتى الى نهايتها يوما مارضينا ذلك ام أبيناه . فلنعرف لهذه الفئة المغلوبة من مواطنينا حقها الطبيعى فى

غذاء الجسد والذهن — وهو لا يتجاوز الكفاف — ، ولنحترم كرامتها الانسانية ولنذكر على الدوام اننا بقدر ما نعطيها نأخذ منها ... ولن نكون فى ذلك ابداً من المغبونين .

* * *

وبعد فهل يستطيع الشباب ان يقدر ثقل المهام الملقاة على عاتقه ... وهل يستطيع ان يدرك مدى الآمال المرجوة منه ؟ ان عليه الآن ان يختار لامته احد طريقين: الفناء او البقاء ... فاذا اختار لها الطريق الثانى فعليه ان يتجه ببصره الى الامام دائما ولا ينظر الى الماضى الا لكى يستلهم العبرة منه .. عليه ان يؤمن بالديموقراطية والحرية ويكافح الاستبداد والرجعية .. عليه ان يعرف أن الامة بحاجة الى جهود جميع ابنائها .. عليه ان يحترم حقوق جميع مواطنيه فى اولى مقومات الحياة .. وان يقدر اثر المرأة فى مختلف نواحى النشاط فى حياته .. عليه ان يقبل على العمل بالجد والاخلاص اللذين يكفلان له النجاح .. وبالجملة عليه ان يؤمن برسالة الغرب وان يصطنع الحضارة الاوربية حتى يستطيع أن يساير تقدم الحياة فى هذه الدنيا التى لا تعرف التخاذل والجمود

عليه ان ينسلخ من شرقيته القديمة وان يودعها الوداع الذى ليس بعده لقاء ؟

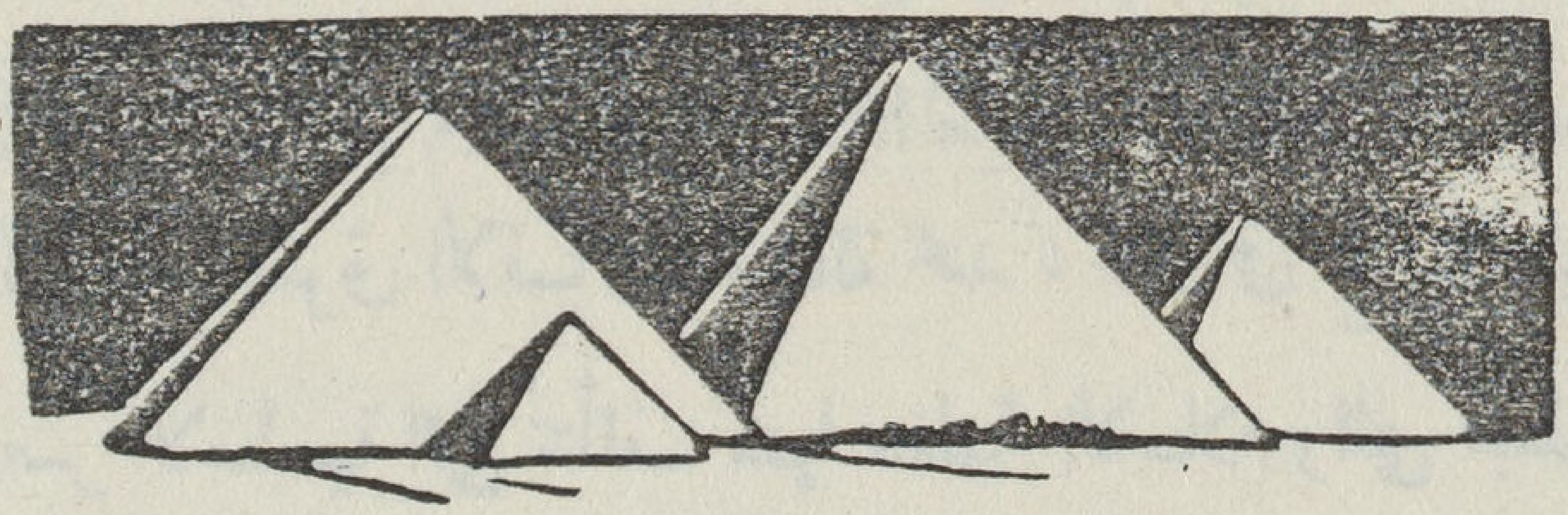

من وراء ذلك ، فى حين لا يستفيدان من الحجر الذى يدعو اليه المشايخ فى تشنج وهستيريا عجيبة لا ترعى حرمة لأحد ، وأظنكم لم تنسوا بعد ما وجه الى خاصة من بذىء المهاترات لمجرد انتصارى لحرية الفكر التى أعدها من عناصر العظمة الاسلامية كما أنها من ضروريات الديمقراطية ، وقد أشاد بذلك صديقى الكاتب محمد خالد المحرر بجريدة الاهرام عندما زار هايد بارك فى لندن ورأى أهل العقائد والمذاهب المختلفة من دينية وسياسية واقتصادية وأدبية يبشرون جنباً الى جنب بتعاليمهم فى حرية تامة دون أن يتعدى عليهم أحد ، وهكذا تكون الديمقراطية فى أكمل صورها. ولكم أن تراجعوا ما كتبه الامام محمد عبده فى كتابه «الاسلام والنصرانية» فى معنى ذلك وفى جناية الجمود على النظام والاجتماع .

تعزيز العقل

أحسن الشيخ عبد العزيز جاويش بك فى كتابه «أثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى» بما سرده من عرض تاريخى لقوم يعقلون ، وقد أكد المسلمات الأولية التالية :—

(١) أنه ليس فى استطاعة العقل البشرى إذا قام له الدليل الصحيح على حكم أن يرتاب فيه .

(٢) أنه ليس فى مقدور العقل البشرى أن يقول بجواز صحة أمرين متناقضين معاً .

(٣) إذا تعارض حكمان يعتمد أحدهما على الحجج القاطعة كان من المستحيل تكليف العقل أن يغلب عليه سواه .

ثم قال : «لاحظ دين الفطرة جميع هذه القضايا الفطرية وجاء كتابه السماوى مصدقا لها ، ثم جاء الخلف من العلماء يؤيدونها ، ولكنهم إن اختلفوا بعض الشىء فيما عن لهم من الآراء تجدهم أجمعوا على قاعدة أنه يجب أن يؤول الى حكم العقل من الشرعيات ما ظاهره يخالف العقل . وهل هذا الا وقوف عند حدود المسلمات العقلية ونزول على حكم الفطرة البشرية ؟ وهل كان للعقائد أن تكون بالجبر والارغام ؟ أم هل كان لدين الفطرة دين البحث والنظر ، أن يكلف بالعقيدة من قصرت عقولهم عن إدراكها أو من تزاحمت عليهم الشكوك والشبهات حتى عجزوا عن صدها

ومدافعها ؟ وهل يقول بهذا القول ذلك الدين الذى قوض دعائم الايمان بغير المعقولات وأقام على أنقاضها عقيدة الايمان اليقينى المتحصل من طريق العقل والنظر ؟ ان الله تعالى لأحكم وأعدل أن يكلف الناس ما ليس فى طاقتهم ، أو أن يلزمهم الايمان بما لم يهدهم الى حجته وبرهانه. يفقه ذلك من يتدبر قوله تعالى : « لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ثم قال أيضا : « وخلاصة القول ان القرآن الذى هو كتاب دين الفطرة ما كان ليأتى بما ينافى الآراء القويمة أو تنم حكمته على العقول السليمة ، ولم يكن ليكلف العقل الايمان بما لا يعقل أو يحمل الجسم مالا طاقة له به أو ان يفترض على الانسان ما ليس من موسوعات فطرته . اذن فوظيفته فى البشر رسم أقرب الطرق الى الهداية وحفظ العباد عن مواطن الهلكة التى يغشاها طلاب الحق والحقيقة لا من طريق الوحى بل من طرائق التجارب ومصارعة شياطين الانس من الحكام الجائرين وعصابات رجال الدين المضللين . ولنا على ذلك ما نشاء من الادلة والشواهد لننظر كيف ومتى صحت عزيمة الامم الغربية ازاء الطلاق وتحريم الخمر والقمار ، وكيف ومتى تحررت فيهم العقول البشرية وأبيحت حرية التفكير والنشر وتقررت بينهم حقوق الانسان . سائلوا الثورات الدينية والسياسية تنبئكم مبلغ ما أريق فيها من الدماء وأزهق فى سبيلها من الارواح . سلوها تصف لكم فواجعها وأهوالها وما أصاب الامم من شرورها ونكباتها » .

لقد سردت ألفاظ الشيخ عبد العزيز بك جاويش حرفيا — وهو رجل معروف بشدة اسلامه وتعصبه له — لتتبينوا انى لم اكن مغاليا فى محاضراتى وبحوثى الاسلامية السابقة حينما تشبثت بمنزلة العقل من الاسلام وبواجب التوفيق بين الدين والعلم بحيث ينبغى أن يعد من الشوائب الدخيلة على الدين مالا ينسجم مع مقررات العلم والعقل ولو أحيطا بهالة كاذبة من العنعنة والتقديس المصطنع وقد سلك الى حد ماهذا المسلك الدكتور محمد توفيق صدقى فى كتابه « الدين فى نظر العقل الصحيح » ومحمد فريد وجدى بك فى كتابه « الاسلام دين عام خالد » والشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره وسائر مؤلفاته ، ومن أقدمها كتابه « التاج المرصع » الذى صحبنى منذ سنة ١٩٠٦ ولا زلت أرجع اليه رجوعى الى سائر مؤلفاته ، فهو على صغره جم الفوائد فى التهذيب الاسلامى .

وقد طبقت هذه المبادىء الاساسية فى شرح مذهبى العقلى الدينى ، ولا غرض لى بطبيعة الحال سوى نقاء الاسلام وخدمته الصحيحة جريا على تقاليد أسرتى من قديم وحبا فى نفع مواطنى ما دام الاسلام دين أغلبيتهم ، وان كنت لا أتوجه بكتاباتى الا الى خاصة الخاصة منهم . ولئن شكرت للمستنيرين المثقفين ثقافة عصرية منهم ترحيبهم بمذهبى هذا ، الا أنه يحزننى وايم الحق أن ينبرى لا لنقاشى بل لشتمى وللكيد لى حتى فى عملى ورزقى نفر من المعممين وأشباههم وبينهم من ينتسب للتعليم ، وهيهات للاسلام السمح أن يرضى عن هذه الاخلاق أو عن هذا السلوك المعيب ، وخاصة من معلم مسلم مفروض فيه أن يكون قدوة فى مكارم الأخلاق . وتأبى الدسيسة الا أن تشوه كل تصرف سليم لى ، وحتى تعابيرى الشعرية الخيالية وخواطر الطفولة البريئة التى يمليها العقل الباطن رأت الدسيسة الكريمة أن تتخذها ذريعة لقلب الحقائق رأسا على عقب ولتصويرى تصويرا عكسيا وهذا غير عجيب منها فقد سبق لها أن حاربت أئمة الاسلام المستنيرين دون استثناء الامام محمد عبده ، ولكم أن تراجعوا ما كتبه عن ذلك السيد مصطفى لطفى المنفلوطى فى الجزء الثانى من كتابه «النظرات» قال فيما قال (ص ١٩٧) : «هذا هو الشيخ محمد عبده وهذه هى مقاصده ومذاهبه ، فما الذى تنقمون منه أيها العلماء الاعلام كما يلقبكم غوغاؤكم أو كما تلقبون أنفسكم ؟ وما هذه الضجة التى سددتم بها منافذ الفضاء ؟... أنسيتم رسالة التوحيد التى أظهر فيها الدين الحنفى جوهرا خالصا ممحصا من شوائب البدع والخرافات التى شوهتم بها وجهه أنتم وأمثالكم ، فلما رآها مسيحى أوروبى قال : «ان كان الاسلام كما وصفه الشيخ محمد عبده فى رسالته فأنا مسلم منذ اليوم لولا انى أخاف أن يكون هذا الرجل قد خدعنا ببلاغته» فقد عرف المسيحى الأعجمى من شأن الرسالة ما لم تعرفوا وأدرك من فضل صاحبها ما لم تدركوا . ومن قابل بين هذه القصة وقصة الرد على هانوتو يوم ذهب ناشرها بنسخ منها ليقدمها الى مكتبة الازهر فأبيتم قبولها بحجة أن كاتبها قد أثم باهتمامه بشأن الرد على رجل من القوم الكافرين ، رأى منظراً عجبا ونادرة من أغرب النوادر ما رأى فيها الراؤون ولا سجل مثلها فى تواريخ الماضين .. انكم والله ما تنقمون منه زيغا فى عقيدة ولا سعيا فى فساد كما تزعمون ، ولا يعنيكم حرم الربا أم حل ، ثبتت الشفاعة أم لم تثبت ، قام الدين أم قعد ، فنحن أدرى

منكم بكم ؛ وأعلم بمنزلة الدين والفضيلة من نفوسكم ؛ وأنما عز عليكم أن تروا بجانبكم رجلا نبت فى تربتكم ودرج من عشكم واستقى من وردكم الذى منه استقيتم ثم ما لبثت الأيام أن دارت دورتها فاذا هو شمس تتلألأ فى سماء المجد والشرف بما وهبه الله من علم واسع وبصيرة نافذة تكاد تخترق حجب الغيب ونفس سماوية محصتها الفضيلة فلم تعلق بها الرذائل ولا طارت حوله المفاسد والأطماع » الخ .

هذا ما قاله رجل الاسلام والأدب السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ؛ لا ما قاله أحمد زكى أبوشادى . . فأى جناح على مثلى وهو يعرض تاريخ الأزهر والأزهريين اذا رأى أن من الخير عدم التوسع فى هذا الطراز من التعليم ، وحصر التخصص الدينى فى الأفاضل من أهل الجاه والبيوتات العريقة ؛ إذ لا جدوى لنا فى الاكثار من المعاهد الدينية وفتح أبوابها لكل هارب من الجندية والفلاحة ، والأصلح لمصر بدل هذه المعاهد الدينية التى لا تنفع الاسلام ولا المسلمين بشىء الاكثار من مدارس الصناعات الزراعية ومن مدارس الميكانيكا والكهرباء وغيرها من معاهد العلوم والفنون التى تحتاج اليها مصر أمس الاحتياج . وبدل أن تنفق الدولة زهاء ثلاثة أرباع المليون على الأزهر هذا العام ليكافىء حكومتها الدستورية بمحاربتها باسم الدين فى مناوراته المعروفة ؛ الأولى بها أن تعنى بالتعليم المعاشى الضرورى للشعب وأن لا تبخل على عاصمة القطر الثانية بجامعة لائقة بها بدل ترك التعليم العالى فيها أجنبياً وان تنشر الحركة التعاونية بين العمال والفلاحين وأن تنشىء مجالس القرى . ومن سوء حظ مصر أن يكون وزير ماليتها من أعلامها المسيحيين ؛ وان يكن من حظها فى الوقت ذاته انه رمز عبقريتها ونزاهتها ؛ فاسم مكرم عبيد مجرداً من كل لقب يغنى عن التقدير . ولكن حنبليته فى المراعاة المتناهية لكل ماهو اسلامى تجعله متسامحاً حيثما لا ينبغى التسامح بتاتاً ، واذا استمر الحال على هذا المنوال فستكون العاقبة تحكيم النقليين فى العقليين ، وتحكيم الدين فى السياسة ؛ وضياع حق كل رجل حر جرىء ووضع راية الحكم على قبة الأزهر بدل قبة البرلمان ! وليس رأيى فى هذا الاسراف الدينى مقصوراً على المعاهد الاسلامية وحدها بل هو يشمل الأديرة القبطية أيضاً ؛ ومن رأيى تضييق ميزانية هذه الأديرة وأن تنشأ بما يتوافر عن ذلك جامعة قبطية فى عاصمة الصعيد مثلا ؛ ولتكن بين كلياتها واحدة للاهوت ، فان هذا أجدى على الطائفة القبطية

وعلى الأمة المصرية من البذخ الحاضر فى إدارة الأديرة وضياع الأموال هباء .

الروح الديمقراطية

لقد بدأت المسيحية كما بدأ الأسلام بروح ديمقراطيـة عظيمـة أضاعها النظام الكنسى الذى أعده شخصيا نظاما غريبا عن المسيحية إذ لم يـكن لها فى الأصـل بابوية ولا كهنوت ، وهى فى نشأتها ديانة انسانية سهلة . ولا نود نحن المسلمين أن يصيب الاسلام ما أصاب المسيحية من ضياع هذه الديمقراطية التى هى من أصول عظمته الحقيقية . هذه الديمقراطية تأبى التوسل حتى بذات النبى صلى الله عليه وسلم (يراجع كتاب «التوسل والوسيلة» للامام أحمد بن تيمية) ، وتأبى بعد الرسل أن توجد واسطة بين الانسان والله سبحانه وتعالى . فمن اللغو الشائـع — والقرآن الكريم هادينا وهو منزل بلسان عربى مبين — أن يتحكم الأزهر أو غـير الأزهر فى إيمان الناس وعقائدهم ومذاهبهم كأنما هو وصى عليهم أو كأنما ليست لهم عقول وليس فى البلد دستور ولاقانون عام !

وقد أبنت كيف أن الدستور المصرى ينسجم تمام الانسجام والمبادىء الاسلامية الرفيعة التى تحترم حرية العقائد وحقوق الناس . ولكن الازهر لايرضيه هذا ، إذ كل ما يشتهيه السلطة قبل كل اعتبار ؛ سواء أكانت سلطة دينية رغم أنف الدين ، أم سلطة سياسيـة رغم أنف الدستور والنظام الديمقراطى . ومع احترامى ومحبتى للشيخ المراغى فقد تجلى الآن بعد الأختبار الطويل أن الشيخ المراغى داخل الأزهر غيره خارجه ، وأن مآل خطته انما هو تحكيم الأزهر فى الامة .

ولا يكتفى الازهريون بذلك بل لابد لهم من محاربة كل مفكر مستنير ولوكان من أخلص خدام الاسلام مثلى ؛ على اعتبار أن الاسلام ومذاهبه احتكار خاص بهم ! كأنما كنت أنظر بعين الغيب حينما كتبت منذ سنوات مقالى عن حرية الرأى وعقابها (كتاب « أصدقاء الحياة »—ص ١٩٥) وفسرت الحقوق الديمقراطية التى يجب أن يحميها الدستور وإلا استحال الحـكم الدستورى الى مهزلة ينسب الى النبى (ص) قوله : « لاتـكونوا إمعة ، تقولون إن أحسن الناس أحسنا ، وإن ظلموا ظلمنا ، ولـكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا ألا تظلموا » . ولـكن بين سادتنا المشايخ من يتبرعون فى روح غير اسلامية ولا مدنية بل فى روح شريرة بالدس

والتكيد لكل من لايماشيهم فى مزاعمهم النقلية التى يأباها العقل والعلم ولا يمكن أن ترضى عنها المدنية الحديثة ، مع أن الروح الاسلامية تحتم التسامح والنقاش بالحسنى واحترام آراء الغير ، وإلا ساءت الاخلاق والآداب وكان الدين مبعث تطاحن وشحناء بدل أن يكون مبعث هداية ووئام . وإن ننس لاننس أن هؤلاء وأمثالهم هم الذين أفتوا من قبل بجلد شاربى القهوة وهم الذين كفروا محمد عبده ورشيد رضا وعلى عبد الرزاق ثم عادوا الى احتضانهم !

وبديهى أن هؤلاء الافاضل يعملون ضد الروح الديمقراطية فى كل شىء ، وقدأخذوا يتعلقون بفكرة « إجماع المسلمين » مستنكرين كل مايخالف ذلك الاجماع ، وبعبارة أخرى أنهم يوصدون باب الاجتهاد إيصاداً تاماً ويبشرون بالتحجر الفكرى ! أليس من السخافة فى هذا القرن أن ينادى بمثل هذا الجمود الذى تبرأ منه الاسلام من أول نشأته ؟ ولو نحن أخذنا بهذا المبدأ المدهش الذى ابتدعه الرجعيون لمصلحتها وطبقناه فى ميادين الثقافة لانعدم العلم والأدب والفن ، إذ لافارق فى الواقع بين الجمود والعدم . والحضارة الراهنة تقوم على العلم التجريبى لاعلى النقليات والخرافات والدعاوى الوهمية ، وكل ذى ثقافة علمية يعرف أنه لابد له من مراجعة معارفة السابقة فى ضوء كل كشف جديد .

ولعلكم تذكرون من أمثلة كيدهم لى وقلبهم الحقائق رأساً على عقب لمناسبة إصدارى رسالة « مذهبى » منذ سنوات أنهم راحوا يزعمون أنى عدو الديمقراطية وأنى طعنت الرئيس الجليل النحاس باشا فى ديوانى « الشعلة » الذى صدر فى عهد صدقى باشا ، مع أن فى الديوان المذكور من السخط على الفاشية المصرية وعلى اليد الحديدية واستنكار إقالة الوزارة النحاسية سنة ١٩٢٨ مافيه ! والرئيس الجليل أول من يعلم أنى رفضت افتتاح معرض « رابطة مملكة النحل » دون حضوره ، وكنت القدوة فى شجاعتى الأدبية زائراً إياه حينئذ فى منزله تكراراً وناشراً صورته فى مجلة « الصناعات الزراعية » ، كما وجهت قصيدة عتاب الى صدقى باشا لتهجمه على الزعماء بالرغم من الصداقة العائلية القديمة التى تربطنى به والتى وضعتها فى المحل الثانى بالنسبة الى وطنيتى ،

فأفسدت بذلك عطف صدقى باشا على ، بل أضعت لى حقوقاً مكتسبة فى نفس عملى الرسمى ، ومع ذلك لم أندم مثقال ذرة وتشبثت بمبادئى الديمقراطية فى كل وقت .

ليست رسالة «مذهبى» ولاغيرها من بحوثى الاسلامية الفلسفية بالتى تعنيهم ، وهم يعرفون جيداً أنى غيور على خدمة الاسلام اكثر من غيرتهم إن كانت لديهم اية غيرة وإنما ما يعنيهم بل ما يخشونه هو صراحتى وشجاعتى الأدبية فى إبراز أصول الاسلام الحقيقية وكلها سماحة ومنطق وديمقراطية ، وفى صنيعى هذا مايهدد سلطتهم المصطنعة القائمة على التعمية والغاء العقل والتزمير للعامة . فلا غرابة اذا لجأوا الى الضوضاء والطعن الحقير بدل نقاش آرائى ، ومن أمثلة ذلك الادعاء بأنى ملحد فى تعابيرى الشعرية ،مع أن هذا مالايقول به أى عاقل يعرف أن للشعر «سواء أكان نظماً أم نثراً» تعابيره الخيالية ومجازاته الجامحة ، وأن للشعر عالمه الخاص الذى لايفهمه الفقهاء خاصة ! وضربوا مثالا لذلك قصيدتى «محاكمة إله» (ديوان «أطياف الربيع» ـ ص٨٦) مع أن الغرض الواضح من هذه القصيدة لكل من لديه ولو ذرة من الادراك الفنى والتمييز الأدبى هو تسفيه غرور الانسانية ، فليرجع اليها من شاء ليرى كيف تقضى الأهواء بلومى على مايستحق الثناء ! ولهم فى كل عام بدعة من أمثال هذا النقد المغرض جزاء على اجتهادى ، ولا أدرى ماهى غاية شططهم هذا وهم يرون أمامهم كيف تحترم المذاهب وتناقش فى اوربا وأمريكا فى أدب واحترام متبادل ، وبغير ذلك تنعدم الحياة الديمقراطية عملياً ولا يكون للتشدق بها اى معنى

ولنفرض جدلا انى مخطىء فى اعتبارى ان الزواج المدنى وتحريم تعدد الزوجات مما يوحى به القرآن الكريم ـ وهو عمدتى الذى اركن اليه ـ فهل الرد المعقول على ذلك مقارعة الحجة بالحجة أم الشتيمة والكيد والاساءة بالرغم من حقى الادبى والدينى والقانونى المكفول منه لكل مصرى مسلما كان او غير مسلم ؟

ولا يتسع الوقت الى اكثر من هذا البيان ، فحسبى ان اقول ختاما انه لو لم يكن للاسلام سوى ديمقراطيته العظيمة التى كان الرسول (ص) مثلها الحى لكفاه ذلك فخرا ، فان هذه الديمقراطية تتخذ من ناحية الفلسفة اللاهوتية صورة الايمان بوحدة الوجود ، وتتخذ من الناحية الاجتماعية صورة الحرية والاخاء والمساواة بأكمل معانيها ، وقد اوضحت فى محاضرتى السابقة «المال

فى الاسلام» كيف ان ديمقراطية الاسلام المالية مفتاح لسعادة الشعوب ، وهى خير الف مرة من نظم كثيرة ، وفيها وقاية لنا من الفاشيه ومن البلشفية على السواء ، وهذه الديمقراطية تتخذ من الوجهة السياسيه صورة الحكم الدستورى الرشيد كما هو قائم فى مصر الآن

وان من الواجب علينا كمسلمين ان نتبين تماما اسباب عظمة الاسلام كدين عام ، وان نتشربها جيدا ، وأن نعمل على اقصاء كل الشوائب عن ديننا الحنيف ، حتى يكون مناطا للاخاء والمحبة بين جميع المواطنين ، ولو استهدفنا بهذا الاصلاح للكثير من الشغب والتهم الجوفاء . فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض .

أثر لاروشفوكو فى الأدب

للدكتور حسن صادق

شغل هذا الفيلسوف الفرنسى أذهان الناس فى القرن السابع عشر ، واقلام الكتاب والنقاد فى العصور التالية . وهو مع هذا لم يخرج للناس من الآثار الادبية غير مذكراته شأن أمثاله النبلاء الاغنياء ، وكتابه صغير الحجم عنوانه « مواعظ أو تأملات وأحكام اخلاقية » جمع فيه كل آرائه فى العواطف الانسانية بعدان ذهبت حقيقة الحياة المريرة بأحلامه وأوهامه ؛ فجاءت هذه الآراء معتمة حزينة تلقى على عواطف الانسان رداء من الشك وتظهرها فى صورة بشعة ، وهى تتلخص فى كلمتين : فلسفة الأثرة . وهذه الفلسفة هى التى حركت الاقلام وأثارت الجدال والقت باسم صاحبها الى الاجيال فى اطار الخلود

وقد استخلص لاروشفوكو من ملاحظاته التفصيلية الخاصة ، فكرته العامة عن الانسان التى تثبت ان المصلحة الذاتية تقوده فى كل موطن ، وحب النفس يدفعه الى كل عمل وصاغ هذه الفكرة الهامة فى تعبير دقيق « تتلاشى الفضائل فى المصلحة الذاتية كما تتلاشى الأنهار فى البحر » ولكى يكسبها الوضوح والجلاء ، رجع الى ملاحظاته التفصيلية واختبرها ليثبت ان كل واحدة منها تدخل فى حكمه العام . فمثلا يقول عن الوفاء « الوفاء حيلة ابتكرها حب الذات لاجتذاب الثقة » ويقول عن الصداقة « ليست الا تجارة يتطلع حب الذات فيها دائما الى شىء يربحه » وهكذا يستمر فى شرح جميع العواطف الانسانية ويردها الى مصدر واحد هو الحب الذاتى . وقد فصلنا تاريخ حياته وفلسفته فى العام الماضى ، ونرى لزاما علينا اليوم ان نبين أثره الادبى اتماما للموضوع

* * *

أثر لاروشفوكو محسوس ملموس فى هذا النوع من الادب المسمى « أفكار » أو خصال أوحكم الذى تفشى فى الادب الفرنسى ومايزال الى اليوم يصادف الاعجاب والرواج

يقول الاديب الفرنسى «دودان» فى معرض كلامه عن هذا المفكر «ماذا عسى أن تكون نظرات ثيوفراست فى الخصال والطباع الانسانية بالقياس الى ما كشف عنه باسكال من ناحية ولاروشفوكو من ناحية أخرى ، فى أغوار القلب وتضاعيفه ؟!»

واذا رجعنا الى قصص (ماريفو) التمثيلية وغير التمثيلية نجد أن هذا الكاتب المشهور قد تأثر بمواعظ لارشفوكو حتى أنه اتخذ موعظة «القلب فى أغلب الاحيان لعبة فى يد القلب» أساساً لقصته (حياة ماريان) وجعل بطلتها لاتفهم الحب الا كما يفهمه لارشفوكو وتستخلص من فهمها هذا اكبر الفوائد لخيرذاتها. والمتأمل يجد أن لارشفوكو من مدرسة (مونتنى) الذى يجعل للاسرة مكانافسيحا فى الحياة ويقول «جميع آراء العالم تتفق على أن اللذة هى الغرض الذى نصبو اليه . ولشد ما يسرنى أن أضرب آذان الناس بهذه الكلمة التى يبغضونها كل البغض»

وفى القرن السادس عشر انبعثت الفاسفة الابيقورية وانتعشت ، ثم حمل رسالتها فى القرن السابع عشر «جاساندى» مع أنه كان من قسس الكنيسة الكاثوليكية ، فأزهرت فى عالم الطبقة العالية رهذا المزيج من الابيقورية ومذهب الجانسينست الذى حمل لواءه لاروشفوكو ، دفعه الى أن يعرف الحب الذاتى الذى رآه فى كل مكان بأنه رذيلة ان لم يكن خطيئة كبرى . وأما الذين جاءوا من بعده واعتنقوا طريقته فقد اتفقوا معه على ان الاثرة ظاهرة عامة واضحة ولكنهم هنأوا أنفسهم بها على انها نعمة كبرى تعود على الجماعة بأجزل المنافع

ولما قرأ الفيلسوف (بل) صاحب القاموس الفلسفى المشهور مواعظ لاروشفوكو ، أعجب بها وأعلن أن الطبيعة الانسانية كثيرة النقص شديدة المكر دائمة المرض ، وجهر بأن الانسان شديد الميل الى الشر والى الاهواء الخبيثة وان الطموح والغرور وخوف العار هى ينابيع فضائلنا التى نفخر بها ، ثم يضيف الى ذلك قوله «ولكن هذه الحال مفيدة ، لان الشعب المكون من أفراد يبلغون حد الكمال فى التمسك بقواعد الدين ينسون الحياة الحاضرة فى سبيل الحياة الآخرة ويعفون

عن الاساءة ، هذا الشعب يعرف كيف يدافع عن نفسه ويرد عنه عدوان جيرانه ويكون مصيره من غير شك الى الخراب والفناء . والرأى عندى أن ما يحفظ العالم ويقيه الانهيار ، هو الأوهام والغباوة والغرائز العمياء . وينبغى أن يروض الانسان نفسه على احتمال الحال الراهنة والتعود عليها»

ويزيد (ماندفيل) الانجليزى تلميذ هوبز ولاروشفوكو على ما سبق رأيه هذا « الانسان أنانى خبيث الجوهر مبطن بمنافق شاعر أو غير شاعر . ومهما ينكر بعض الناس فان المصلحة الذاتية هى سر الارض كلها» وهو وبل لاينظران الى القيمة الاخلاقية لاعمالنا، بل الى منفعتها أو ضررها،ومن أجل ذلك يجدان أصل الجماعات فى أكوام الحاجة وضروب النقائص وأنواع الشهوات التى تتملك الانسان . ولايتردد ماندفيل فى أقرار الاهواء الانسانية جميعا فهو يطرى الكبرياء وشهوة الحس والكسل والبخل والتبذير على انها (المحركات) الكبرى للتجارة والصناعة والفن والعلم ، أى يؤسس الحضارة على الخطايا السبع الرئيسية . فضلا عن ذلك الشر أن الذى يأتيه الافراد يؤدى الى خير الجماعة وتقدمها وهو يلخص فلسفته فى هذه الجملة « الرذائل الخاصة ، هى فوائد عامة »

ويفكر الفيلسوف الألمانى « كانت » مثل بل وماندفيل حين يقول أن الرذائل ضرورية لانسجام المجموع المتنافر ، ولولاها لنامت الى الأبد الاستعدادات العظيمة الكائنة فى الانسان

ويعتبر هلفسيوس الحكيم الفرنسى نفسه من شيعة لاروشفوكو ولكنه على النقيض من ماندفيل يعلن أن الحب الذاتى ينقسم الى نوعين ، أحدهما يتصل بالفضيلة والآخر بالرذيلة ، ويعتقد أن مواعظ لاروشفوكو أخطئ فهمها ويقول « لما قال لاروشفوكو العظيم أن الحب الذاتى هو جوهر كل أعمالنا دفع الجهل بمعنى هذا التعبير كثيرا من الناس الى القيام فى وجه هذا المفكر . ومع ذلك كان من السهل أن يدرك الانسان ان الحب الذاتى ليس شيئا آخر غير عاطفة تتخذ فى كل إنسان شكل الرذيلة أو الفضيلة • ولو ادرك الناس هذه الحقيقة لجنبوا لاروشفوكو كثيرا من النقد الذى وجه اليه على أنه رأى الانسانية قاتمة سوداء . لقد عرفها كما هى فى الواقع»

ويرى هلفسيوس أن الناس أثرون أبرياء وأنهم كما ينبغى أن يكونوا ، فكل نقص يضمر لهم هو ظلم شديد . ومثل من يثور ويسخط على أثرتهم كمثل من يتململ من غمائم الربيع . وإذن ينبغى ألا نحاول محو أهوائهم لأن المحاولة لا تجدى نفعا . بل ينبغى أن نوفق بين هذه الأهواء

والخير العام وان نجعل كبرياءهم أو غرورهم يجد فى تضحية بعض المنفعة الخاصة فى سبيل المنفعة العامة ما يرضى أثرتهم . ومن الواجب على الدولة والجماعة أن يثبتا الاعمال التى تعود عليها بالنفع وأن ينظما الميول الأنانية على ضوء موعظة لاروشفوكو هذه «المديح الذى يهدى الينا، يجعلنا نثبت على التحلى بالفضائل» . وقد أصبح المذهب الابيقيورى الخاص بالمصلحة الذاتية والمنفعة ، أساسا لعلم الأخلاق بفضل فلسفة هلفسيوس ، وامتزجت به من عقيدة جديدة هى الايمان بالانسانية

ولما ظهر كتاب هلفسيوس « فى العقل » صادف نجاحا عظيما فى فرنسا وفى أوروبا عامة وقد هيأت قراءة مواعظ لارشفوكو أسباب هذا النجاح . ونجد أثر هلفسيوش مضافا الى اثر الابيقوريين واضحا ملموسا فى الاقتصاد السياسى الناشب فى عصره ، وامتد هذا الاثر إلى بنتام الذى يقول عن هلفسيوس إنه شعاع من النور . واستمر المذهب النفعى يسير فى طريقه وهو يصفى ويهذب حتى تسلم زمامه ستيورات مل وداروين وهربرت سبنسر

وقد تولى نقض نظريات هلفسيوس والتخفيف من وقعها فولتير وروسو وديدرو وتلاميذ شافتسبر الآخرين الذين يميزون الغرائز الاجتماعية من الغرائز الأنانية ؛ ويقولون بوجود فكرة غريزية فطرية عن الخير فى الانسان وبوجود أعمال خالية من الغرض تماما

ومن أشد المفكرين نفورا من مذهب المنفعة وسخطا عليه ، جان جاك روسو الذى ينادى بتمجيد شعور القلب ويعارض احتقار الاريستقراطية للانسانية بالعقيدة فى الديموقراطية التى تتمثل فيها الطيبة الفطرية . ولم تنل آراء روسو بطبيعة الحال قبولا عند ذوى السلطان فنرى مثلا فردريك الثانى ملك بروسيا يكتب الى أخيه هنرى يقول «أرجو أن تعيد قراءة مواعظ لاروشفوكو» وذلك ليشفيه كما يقول من آراء روسو الذى يجد الفضيلة فى الأكواخ لا فى القصور

وأكثر الناس اعجابا بلاروشفوكو هو الفيلسوف الألمانى شوبنهور الذى يذكره فى مواضع كثيرة من كتابته . يقول هذا الحكيم «لاروشفوكو بالنسبة للحياة الخاصة كماكيافيللى بالنسبة للحياة العامة .. ومن السخف أن ينسب إليهما الفحش والبعد عن الأخلاق اللهم الا إذا استطعنا أن نعيب على أستاذ السلاح أنه يعلم قواعد المبارزة . وكل ما يمكن عمله — اذا احتاج الامر — فى هذا الكتاب «أى المواعظ» الفخم الخالد هو اصلاح عنوانه ، لانه لا يشتمل على مواعظ بل على

مشاهدات » .

ويعجب نيتشه غاية الاعجاب بلاروشفوكو ويجل كتابه «أكثر من جميع كتب فلاسفة الالمان مجتمعة» . وهو فى فلسفته يجعل الأثرة ميزة ينبغى أن تكون وقفا على رجال الاريستوقراطية لانهم هم الذين ينبغى أن يكون فى أيديهم زمام الامر والنهى . وليس أدل على مبلغ تأثر نيتشه بلاروشفوكو من محاولة تقليده فى كتابة المواعظ ؛ مثل «زيارة الجار المريض هى نزعة استعلاء من الزائر يرجو من ورائها أن يرى بعينه عجز صديقه» وقد جرى قلم لاروشفوكو بمثل هذا المعنى الذى جاء به نيتشه ولكن فى تعبير آخر

واذا اختبرنا القصصيين والشعراء والنقاد الذين عرفوا بقوة ملاحظتهم للطبيعة البشرية وقوتها، فأننا نجد من غير شك أثر لاروشفوكو فى كتابتهم واضحا جليا . فبنجامان كونستان تعتبر قصته الخالدة أدولف شرحا مدهشا للمواعظ . وأشخاص بلزاك وستندال ما كانوا يستدرون الاعجاب بغير الغرض والاثرة ولم يكن ميرميه أكثر من هؤلاء ثقة وعقيدة فى أثر الدين الفعال ولا فى التقدم الخلقى . ولم يكتف فلوبير بأن يجد فى كل مكان رذيلة القلب التى لا يرجى لها شفاء وهى الاثرة بل يضم اليها رذيلة الادراك وهى الغباوة

وشغلت آراء لاروشفوكو سانت بيف طيلة عمره ، وهو يقول أنه عرف نفسه فى هذا المفكر المتشكك .

وقد مدح تين تحايل لاروشفوكو العميق وقال «أى جديد يأتينا به ؟ ان المصلحة الذاتية والكبرياء والمزاج والعادة هى دوافعنا العادية وان الانسان يعثر فى أغلب الاحيان بالاثرة فيما نسميه فضائل . كنا نشك فى هذا قبل أن نقرأ هذا المفكر . عندنا أهواء جميلة وعواطف نبيلة تلهمها الاثرة كالرغبة فى المجد والامل فى عذاب الآخرة ؛ ولكن الفضيلة او كما يعرفها الرواقيون والمسيحيون لا يجدها الانسان البته الا فى كتب الفلسفة والدين ؛ ولا يمكن أن تكون الا فيها»

وليس من شك فى أن فئة من الكتاب والشعراء المتفائلين يعارضون لاروشفوكو ويجدونه على باطل فيما أبدى من الآراء . فبعض قصص جورج سان وقصائد هيجو مثلا تعلن الينا انجيلا جديدا او انسانية جديدة يكون كل فرد فيها عاملا مجدا وفيا رحيما معينا أى يحل الوفاء محل المنافع

الذاتية فى التكوين الاجتماعى ؛ وحينئذ لا يكون لمواعظ لاروشفوكو أى معنى

وكثير فى المثقفين لا يطيقون قراءة لاروشفوكو . وهم لا ينكرون ماتشتمل عليه مواعظه من الحقائق فى تفاصيلها ؛ ولكنهم يعتبرون أن تصوير بعض الحقائق المعتمة المحزنة خطر فى ذاته مهما يكن أمينا وفيا . ويفكرون مثل الكاتب الانجليزى سترن إذ يقول « أعتقد أن لاشىء أضر بالفضائل الاجتماعية من هذا التصوير البشع للجماعة الانسانية الذى انكب عليه كثير من الفلاسفة . هذا التصوير ، بمحوه كل ماهو جميل كريم فى القلب الانسانى ، ينزل به الى درجة احط من الحيوان ويحوله مركبا من الاثرة والدنايا . والتجربة تعلمنا أن خير وسيلة لجعل فرد من الافراد صالحا شريفا هى أن نفرض وأن نعامله على أنه كذلك وكل إنسان يحترم ويقدر نفسه قليلا ، يشجع نفسه على استحقاق الاحترام والتقدير »

ويقول الأديب الفرنسى « دى ساسى » وهو متفق فى الرأى مع سترن « أن لاروشفوكو يصب السم على أحلامنا الخاصة بتقدم الانسان وسيره نحو الكمال ! انك تعتقد أنك تحب صديقتك فيقول أنك لا تحب إلا نفسك ! وتبتهج بأن لك قلبا كريما ، فيقول أنك لست إلا أنانيا مهذبا! هذه الكتب الصغيرة المملوءة بمثل هذه الاحكام لا تلهم إلا السخرية من النوع الانسانى » . وساءل نفسه فى نهاية كلامه « هل كبريائى أو غرورى هو الذى يألم به؟ لا أعتقد ذلك . لقد قرأت كتب الأخلاقيين الأقدمين فوجدت أن هؤلاء العظماء لا يشرحون القلب ليبحثوا فى ركن مظلم منه عن سبب معيب مخزى لعمل جميل »

ونحن نتساءل بدورنا أهذا النقد حق من جميع الوجوه ؟ للكتب حظوظ وأقدار كالانسان وتتوقف قيمتها وأثرها على طريقة أدراكها وتناولها وعلى استعداد الشخص الذى يؤديها وقد رأينا كثيرا من الكتاب البلغاء يظهرون الناحية الجميلة من الحياة ، فهل نضيق بلاروشفوكو وهو يعرض علينا صور الناحية الأخرى ؟!

وفضلا عن ذلك فان مواعظه تعلمنا ألا نعتمد على الغير وألا نسلم لوعودهم وأن نجنب أنفسنا اسباب الاستياء وخيبة الأمل ، أى تلقى علينا درسا قاسيا فى الاعتماد على النفس

يقول الكاتب « سيتاك دى ميان » « ربما لا يكون لاروشفوكو مخطئا بعض الخطأ . أنه

هؤلاء الأطباء الذين لا يرون فى جميع الحالات إلا الأمراض التى درسوها فى إمعان خاص ولكنه على كل حال يرسل أشعة من نـور تخترق النفس وتنفذ الى أغوار القـلب . وإنى مدين له بجزء كبير من معرفتى لنفسى »

هذه المعرفة العميقة للانسان وأهوائه تقينا شر الأخيلة والأوهام ذات الخطر ، وربما تلهمنا الطموح إلى حسن السلوك لندحض تشاؤم لاروشفوكو ونجد فى أنفسنا حججا نفند بها مذهبه

وكتاب المواعظ ذو خطر على الخلق الضعيف لأنه ربما يجهز عليه ، ولكنه نافع للخلق القوى الذى يعتبر بتحذيره وتهديده . ومن أجل ذلك تنشىء قراءة المواعظ إنفعالا وقلقا فى بعض النفوس لأنها تكشف لأصحاب هذه النفوس عن سرهم الخاص ؟

فورد يتحدث عن عمله

هنرى فورد هو صاحب الاتوموبيلات المعروفة باسمه .
وقد ألف كتابا عن «حياتي وعملى» وهنا خلاصة لهذا الكتاب
كتبها الاستاذ يعقوب فام

هنرى فورد شخصية محبوبة خصوصا من عامة جماهير الدنيا وذلك لعدة أسباب — منها أنه ناجح فى أعماله كل النجاح ، ومنها أن الاشاعات عنه فى ادارته تؤكد شهرته وتصوره فى صورة البطل من حيث معاملاته لعماله ومن حيث الأجور التى يدفعها لعماله ، ثم لأن منتجاته تملأ أسواق الدنيا من صحارى الصين الى غابات أفريقيا

لم اكن أدرى أن فورد مؤلف أيضا ، ومؤلف سهل المنال لذيذ الحديث يصل بما يريد الى إفهام عامة الناس مثلى ، لم اكن أدرى هذا ولكنى عثرت صدفة وأنا أقلب رفوف مكتبة الجمعية فى الزوايا الخفية على كتاب لفورد اسمه «حياتى وعملى» فقرأته بلذة كبيرة أو اهتضمته كما اهتضم طبقا من الكتاكيت والملوخية الخضراء ثم دفعت بعضا من أصحابى لاستعارته ففعل بعضهم وتكاسل البعض الآخر

كان هنرى فورد فلاحا فى ضواحى شيكاغو بولاية متشجان وكان يحرث الارض وامامه ثوران يسوقهما سوق الابل على مهل وبتؤدة ، والحرث عملية شاقة مضنية بطيئة تحتاج الى صبر طويل ، كان فورد يسوق الثورين امامه فيقطع الميل حرثا بعد أن يكاد صبر أيوب يفرغ ، فكان فورد يثور على هذا البطء المريع ويرى أن مثل هذه العملية مضيعة للوقت وللجهود وغير منتجة أو مكسبة كما يجب أن يكون وكما يمكن أن تكون .

وفى الثانية عشرة من عمره كان قد رأى لأول مرة فى حياته آلة تسير من تلقاء نفسها من غير

أن تجرها خيل أو تدفعها أيد ، كانت هذه الآلة ضخمة جدا ثقيلة جدا تزن بضعة عشرة قناطير ، وكانت تسير بالبخار وتجر وراءها عربة ملأى بالفحم ، صنعت هذه القاطرة كى تجر عربات الدرس وتدير طواحين النشر لنشر الاخشاب ، رأى فورد هذه الآلة وسجلها فى مخه فلما كبر وتولى حراثة الارض كان يتمنى على الله أن يخترع أحدهم محراثا يدار بالبخار حتى يقلل عن الناس المشقة ويزيد فى انتاجهم ، ومن هذا الوقت توجهت جهود فورد الى الآلات والعدد واشترى ساعة ليفكها ويرى ما فى داخلها ، والى هذا الى الوقت الحاضر لم ينقطع فورد عن أن يكون عاملا وصانعاً وميكانيكياً

لا داعى لسرد تاريخ حياة فورد والخطى التى اتبعها الى أن وصل الى هذه الحالة التى هو عليها الآن من السعة فى العيش والقوة فى المال والخدمات التى استطاع أن يؤديها للعالم ولمدينته لان كل ذلك موجود فى كتابه ويستطيع كل قارىء أن يراه بنفسه ولكننى سأحاول أن أوضح بعض النواحى المهمة فى حياته — تلك النواحى التى تهمنا فى أعمالنا اليومية وفى ثقافتنا النظرية والتى تجعل للكتاب قيمته الحقيقية بين الكتب

لقد وضع فورد بحياته وبأعماله بعض المبادىء الاقتصادية المهمة وبرهن على خطأ بعض المبادىء الاخرى ، وبعبارة أخرى استطاع فورد بنجاحه فى أعماله أن يضع نظما اقتصادية ثابتة يصح أن تدرس فى الجامعات لا بل هى تدرس هناك ، ويصح أيضا أن تتبع فى المصانع والمتاجر لا بل هى تتبع هناك أيضا

من المبادىء التى سار عليها فورد ونجح فيها واكتسب عن طريقها — ان العمل خدمة وليس تكسبا ، وبمعنى آخر أن مبدأ المصانع وغرضها يجب أن يكون خدمة الجمهور وليس المكسب ، اخدم الجمهور أولا وقبل كل شىء — فيدفع لك الجمهور ثمن هذه الخدمة مضاعفا ، سار فورد على هذا المبدأ ونجح فيه نجاحا منقطع النظير ، ففى أول كل سنة مالية ، عند وضع السياسة المالية لمصانعه لم يكن يفكر فيما يضعه فى ميزانيته من المكسب الذى يسعى وراءه ، لم يكن يقول فى نفسه ، يجب أن اكسب فى السنة القادمة مبلغ عشرة مليون ريال ، ثم يوجه قوته وقوة رجاله ومصانعه الى هذه الغاية. كلا لم يكن يفعل شيئا من هذا ، وانما كان يبدأ هكذا ، كانت تكاليف الاتومبيل الواحد السنة الماضية ١٥٠ جنيها مثلا وكنا نبيعه بمبلغ ١٦٠ جنيها للاتومبيل الواحد فيجب أن يكون ثمن الاتومبيل فى السنة

القادمة ١٤٠ جنيها فقط ويجب أن لا يزيد عن هذا الثمن بحال من الاحوال ،ولكن لو فعلنا هذا خسرنا كل المكسب وعشرة جنيهات عن كل أتومبيل من رأس المال ، واذن يجب أن نفعل المستحيل لتخفيض تكاليف الاتومبيل الواحد حتى نغطى هذه الخسارة ونكسب بعض الشيء أيضاً.

هكذا يقرر فورد سياسة مصانعه ، وهكذا يسير فيكتسب الملايين ،

من طرائفه فى هذا الباب أنه خفض ثمن الاتومبيل مرة الى أقصى حد حتى أنه لو سار على نظام

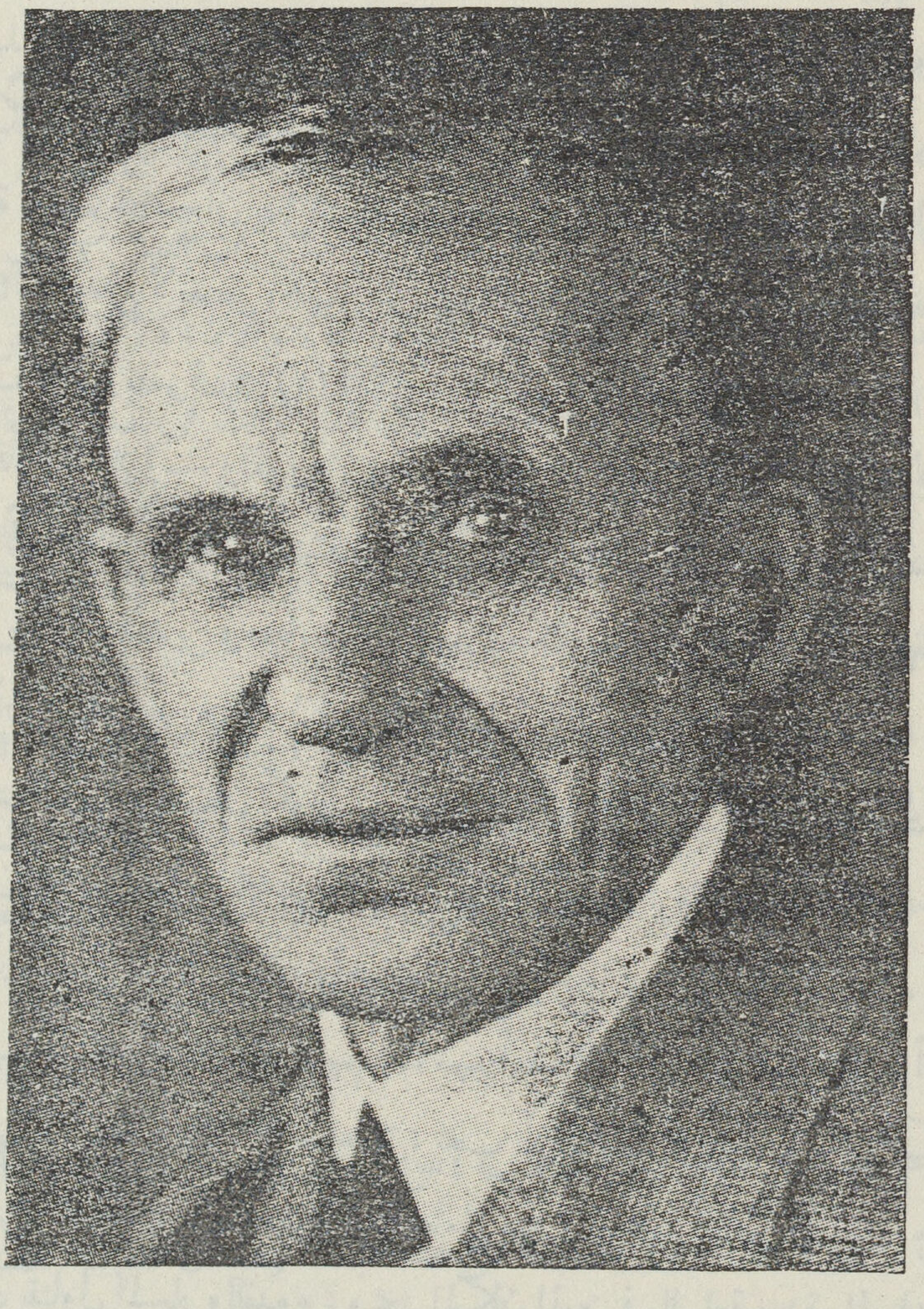

هنري فورد

التكاليف كما سار فى السنة السابقة للحقته الخسارة ؛ خفض الثمن الى هذا الحد ، وقطع التكاليف الى الدرجة القصوى ، ولكنه وجد فى آخر السنة أن مكاسبه من الاتومبيل الواحد قد زادت على ماقدره لها ، فما كان منه الا أنه أرجع لكل مشتر فى هذه السنة مبلغ عشرة جنيهات عن كل اتومبيل

وهنا يتعارض فورد مع النظريات الاقتصادية القديمة التى كانت تدفع التاجر الى اكتساب أقصى ما يستطيع اكتسابه فى السلعة الواحدة ؛ قلب فورد هذه النظريه رأساً على عقب فاصبح الاقتصاد السليم فى أن يكتسب التاجر أقل مايمكن اكتسابه عن السلعة الواحدة ويكثر من السلع المبيعة بدرجة يكون معها المتجمد مبلغاً لايستهان به ، وعلى هذا يجب أن تكون أثمان السلع فى هبوط مستمر . ووظيفة المصنع الناجح أن يقلل التكاليف ويجعل هذا المبدأ شغله الشاغل طوال العمر ـ يبحث فى أبواب التكاليف حتى لايضطر الجمهور الى دفع مليم واحد اكثر مما يجب أن يدفع

والتكاليف بالطبع تصرف فى (١) الادارة (٢) المواد الاولية (٣) العمال

فالادارة قائمة على الرؤساء والمديرين والمساعدين لهؤلاء واولئك ، وهؤلاء لاينتخبون وانما يدفعون العمال الى الانتاج ، فاذا اكتشفنا نظاما آليا لدفع العمال للانتاج استطعنا أن نستغنى عن الرؤساء والمديرين والمساعدين وحجابهم وخدمهم ومكاتبهم وتلفوناتهم وسكرتاريهم ، واذن فليكن غرض المصنع أن يستغنى عن هؤلاء فينقص التكاليف

وأما المواد الاولية فيجب أن تكون من أحسن صنف وأمتنه ، ولكنها تحتاج الى النقل والاعداد فيجب أن تكون تكاليف هذين البابين أقل ما يمكن أن يكون ، بشرط أن لا يتزحزح المصنع قيد شعرة عن اختيار أحسن المواد الأولية وأجودها

والعمال باب مهم للصرف ، ولكنهم باب مهم أيضا للانتاج وعلى هذا يجب أن ينتج العامل أقصى ما يستطيع أن ينتج فى الساعة الواحدة ، يجب أن تكون كل حركاته وكل سكناته مما تؤدى الى الانتاج السريع المتلاحق ، ولنضرب مثلا بعامل معين، على هذا العامل أن يدق مسمارا فى مكان معين ، فعليه أن يتناول المسمار والقدوم ، ويجد المكان المعين فى السلعة ويدق المسمار هنالك . عليه أن يفعل هذا ، فاذا كانت الفأس على بعد بضعة أمتار لليمين والمسمار على بعد بضعة أمتار للشمال ، كان على الصانع أن يذهب هذه الامتار لليمين ولليسار ذهابا وايابا ثم يدق المسمار ، بهذه الكيفية

صرف العامل معظم وقته فى حركات لادخل لها فى الانتاج ، صرفها فى حركات ضائعة هباء ، فيستطيع المصنع أن يجعل الفأس والمسمار والسلعة أن تلتقى جميعاً امام الصانع فى المكان المناسب وفى اللحظة المناسبة حتى يوفر على العامل وقتاً يستطيع ان يصرفه فى الانتاج ليس إلا ، وبمعنى آخر لو كان دق المسمار يستغرق ثانية وحركات العامل تستغرق بضعة ثوان كن نظام المصنع نظاما سخيفاً وتكاليف السلعة فيه كبيرة والجمهور معه مظلوم

واجرة العامل باب مهم للانتاج أيضا ، فلو كانت اجرته كبيرة حداه الأجر الى الانتاج وغالى فيه وحرص عليه ، ثم أن الأجرة الكبيرة مغرية للصرف أيضاً فيستطيع العامل أن يشترى من السلع مايكفيه هو وعائلته ، والعامل انسان مثل باقى الناس يحتاج الى ضرورات العيش ويحب ضروب الترف ، وسوف ينال حظه من هذه وتلك اذا كانت وسائله المادية متوافرة ، فانقاص أجرة العامل فى رأى فورد وفى الواقع ليست انقاصاً لتكاليف الانتاج وفى نفس الوقت هى مضعفه لقوة الشراء ، وعلى ذلك فليست هذه سياسة مستقيمة يصح لأى مصنع راق أن يتبعها ، وفورد بالطبع لايتبعها بل يسير على عكسها ، والأجور فى وضعه آخذة فى الزيادة المضطردة حتى أن أقل عامل عنده يتناول أجراً ١٢٠ قرشا فى اليوم

ويظن فورد أن هذه النظرية — انتاج اكبر عدد ممكن من وحدات السلع باقل التكاليف لكل سلعة — يمكن أن تطبق فى كل الاحوال — من خدمة وانتاج — فكما أنها تطبق فى المصانع كذلك يمكن تطبيقها فى المستشفيات وفى المدارس والكليات ، ويظن أيضا انها تكفل نجاح هذه المعاهد من جميع الوجوه ، فيمكن أن المدرسة مثلا تكون منتجة ومكسبة اذا انتظمت ادارتها وسارت بها فى هذا السبيل

ففتح فورد مدرسة على هذا النظام ليختبره عمليا ، واستجاب لها خير المدرسين وأكفاءهم ونقد هؤلاء المدرسين اكبر الأجر ، وسار بالمدرسة على هذا المبدأ ، وهو أن المدرسة مصنع يجب أن تقل فيه تكاليف الانتاج للسلعة الواحدة ويجب أن تزاد فيه وحدات الانتاج ، فقسم أوقات الطلبة بين العمل والدرس ، واهتم بالدرس بحيث خصه بوقت يكفى الطالب لان يستوعب من العلوم جميع مايستوعبه طلبة المدارس الاخرى ، والوقت الباقى خصه للأعمال المنتجة بحيث أن ما يعمله

الطلبة يكون نافعـــا فى المصانع وللجمهور ، فكانت النتيجة ان الطالب عوضاً عن أن يدفع رسوما للمدرسة ، يتقاضى منها رسما قدره ٨٠ جنيها الى ١٢٠ جنيها عند الدخول ، كل طالب يقبض من المدرسة هذا المبلغ كرسم للدخول ثم يحضر الدروس ، ويدرس على أحسن المدرسين ، ويصنع بعض السلع التى يحتاجها السوق ، ويأخذ أجراً لهذا العمل علاوة على رسم الدخول ، وقد يبلغ الاجر خمسة قروش عن الساعة الواحدة ، وينتهى الطالب من المدرسة بعد أن يحصل على الدرجات العالمية على حسابه الخاص من غير حاجة الى احسان من قريب أو غريب ، ويستطيع بعد ذلك أن يلتحق بمصانع فورد اذا رغب فى ذلك ، ويستطيع أيضا أن يقبض المتوفرات من ايراده ويذهب لحال سبيله حراً يبحث عن عمل حيثما شاء

ثم فتح مستشفى على هذا النمط أيضا ، رسم الدخول فيه زهيـــد جدا ، أقل بكثير من رسم الدخول فى أى مستشفى آخر ، به أحسن الاطباء وأبعدهم صيتا ، يتقاضون فيه أجراً لا يتقاضاه غيرهم فى مستشفى آخر ، وهو على أحدث طراز ، يدخل المريض فيه بعلة معينة ، ولـكن الأطباء يتناولونه بالفحص فى كل عضو من أعضائه على حدة ، وكل طبيب يكتب تقاريره مستقـلا عن الآخرين ، وترسل هذه التقارير الى رئيس الأطباء فيأمر بمعالجة المريض فى جميع أجزاء جسمه التى تحتاج الى علاج ، ويقيم عليه من الممرضات مايحتـاج اليهن من غير مقابل ، وفى دور النقـاهة يؤتى له بالعدد والآلات بجانب سريره حتى يستطيع أن يتكسب من عمله ، ولقد وجد بالاختبار أن دور النقاهة فى هذا المستشفى أقصر عمراً من مثله فى جميع المستشفيات الأخرى ، ذلك لأن المريض ينصرف عن مرضه الى شأن آخر

لقد أطلت الحديث فى فورد وما عمله ، والآن أريد أن أتحدث قليلا فيما يرتأيه ، ليس فيما يعمل بل فيما يفكر

يرى فورد أن نظام البنوك نظام سخيف ، ذلك لأن البنك لاينتج وانما يضارب فى الانتاج لايضع السلعة بل يتلاعب فى أثمانها ويكسب من هذا التلاعب ، فهو يسلف النقود للمصانع ويأخذ عليها فائدة ، وهذه الفائدة بالطبع ترفع تـكاليف السلعة ، ثم أن المصنع الذى يستـدين النقود لابد وان تكون ادارته عقيمة مفلسة عاجزة والا لما كان يستدين

ونظام النقد والاوراق خطأ لأنها تتدخل فى السوق طرداً وعكساً من غير أن تنتج ، وهى التى تنتج الازمات ؛ والناس لايحتاجون الى النقود وانما يحتاجون الى السلع ، فلو توافرت السلع لما شعر أحد بحاجته الى أوراق النقد ؛ ونظرية العرض والطلب كلام فارغ قديم لايصلح للحياة ،ذلك لأن الناس دائما أبداً فى حاجة الى السلع ، يحتاجون القوت والكسوة والاتومبيلات والساعات الخ ولايمتنع الناس عن هذه جميعا أو عن بعضها الا اذا كانوا لايملكون الأوراق التى تساعدهم فى الحصول عليها ؛ وبمعنى آخر ان الأزمة لا تنتج الامن ندرة النقود ؛ بحيث لو كان لكل امرىء مايريد من النقود ؛ لما حدثت أزمة ؛ فالازمة فى الواقع من عمل النظام النقدى ومن عمل البنوك فلا بد وان تكون هذه وتلك خاطئة

الحق أن فورد فتح بابا جديداً للاقتصاديات ودل على طريق جديد لاصلاح أحوال الدنيا ؛ وعسى أن يدرس الماليون هذا حق الدراسة ويتعاونوا باخلاص لانقاذ العالم من محنته هذه ؟

الأدب الشعبى

محاضرة للاستاذ على محمد البحراوي ، سكرتير « جماعة الادب المصرى »
فى دار جمعية الشبان المسيحية بالاسكندرية

أحب أن أوضح فى مستهل هذا الحديث الحدود بين الأدب الشعبى والأدب العامى فقد فهمت من حوار بين فريق من المتأدبين حول هذا الموضوع أن البعض لا يفرق بين هذين النوعين ، فالأدب العامى هو ما يقصد به إلى مجرد مخاطبة غرائز العامة عن طريق ارضاء بعض النواحى المنحطة من روحهم العامية وهو أبعد عن الرغبة فى السمو بهم إلى أية عاطفة شريفة ، أما الأدب الشعبى فهو الادب الذى يترجم بلغة الشعب عن عواطفه ويعبر بطريقته عن أمانيه ويرسم بريشته مثله العليا ، وهو من أهم مراجع التاريخ التحليلى الحديث فى درس الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فان ضغط المدنية يدفع الى إبراز الصور النفسية فى هذه الصيغ الشعبية السهلة ، وفى اوروبا اليوم — وفى فرنسا على الأخص — تتناول الهزليات الشعبية تكييف نواحى الحياة ووصفها فى دعابات حلوة

من حق مصر أن تطمئن الآن إلى اصطناع اللغة العربية فانها أنسب وسائل التفاهم اللغوى وأرقاها فى الشرق فضلا عن أنها جامعة وثيقة للأمم المتجاورة التى تربط بينها وحدة الاخلاق والعادات ، والمصلحة المشتركة ، ولكن هذه اللغة مع ذلك ليست لغة مصر الأصلية بل هى لغة العرب الفاتحين ، ويقول علماء الاجتماع إن اللغة لا بد أن ينالها شيء من التغيير فى انتقالها من أمة إلى إخرى ، وإن هذا التغيير يكون على قدر اختلاف الافكار والطبائع بين الأمة الناقلة وبين الامة المنقول عنها ، ويذهب الدكتور جوستاف لوبون إلى أبعد من ذلك فيقول إن الكلمة يكون لها معنى فى زمن و بعد بضعة قرون يصبح لها معنى آخر ، والمعنى القديم هو الذى كان يجول بخواطر

رجال العصر القديم ثم تغيرت مدلولات الالفاظ بتغيير الأفكار والاخلاق والعادات وبقى الكلام بواسطة اللغة القديمة لتعسر استبدالها غير انه لم تعد هناك نسبة بين ما كانت تدل عليه قديما وما أصبحت تدل عليه الآن ، والدليل على صحة هذا الكلام فى مجموعه اننا لا نستعمل الآن لغة أمرىء القيس ولكننا نصطنع لغة إن كانت عربية الاصل والقاعدة فهى مصرية - أو أقرب الى المصرية فى الروح والمزاج وطريقة التعبير ، ومن حسن الحظ أن لغتنا الغنية الزاخرة تتسع للقياس وتحتمل التوليد وتقوى على التعبير عن حاجات السياسة والعلم والفن وهى تجد فى ذلك غير عابئة بتنطع الرجعية .

ولكن هل وصل التكييف وهل وصلت السهولة بلغة الكتابة فى مصر الى الحد الذى يجعلها مفهومة من الشعب ؟ مع الاسف لا ، ولكنها فى طريق ذلك ولا بد أن تصل يوماً إلى البساطة التى تجمعها بلغة التخاطب مع احتفاظها باصولها وشخصيتها . وإلى أن نصل إلى ذلك تواجهنا الآن لغتان : لغة الكتابة ولا يزال التفاهم بها مقصوراً على المتعلمين وعددهم ضئيل ، ولغة التخاطب وهى التى يستعملها الشعب ويفهمها المتعلمون وغير المتعلمين ، ولهذا آثر فريق من الادباء أن يتحدث الى الشعب بلغته التى يتناولها كل فرد عن أن يقصر عدد مطالعيه على تلك النسبة الضئيلة التى تفهم لغة الكتابة . وللاديب الشعبى العبقرى محمود بيرم التونسى رأى فى تفضيل استعمال اللغة الشعبية نذكر مقتطفات منه لتتبعوا طريقته فى ايضاحه يقول :

« يقولون ان لكل كاتب « رسالة » يؤديها إلى أمته ، وأعتقد أن الكاتب العربى صاحب التعبير الرصين والأسلوب العالى فى بلد كمصر هو أبعد الكتاب عن أمته ، وسيحمل رسالته على أم رأسه ويطوف بها على خريجى المدارس والمعاهد يرضيهم ويرضونه ويبقى معهم بمعزل عن الأمة كلها ، وهذه أنانية من أصحاب « الرسالات » يؤسف لها »

ويقول فى موضع آخر :

« أقر وأعترف ان لدينا كتاباً لم يوجد مثلهم فى أى عصر من عصور اللغة وكتبهم لم تزخر بمثلها العربية فى أى عهد ، ولكن على هؤلاء الكتاب أن يوقظوا قراء العصر الاموى والعباسى ليقرؤوهم »

ويقول فى موضع ثالث :

« اننى لا أنكر فضل كتابنا فى ذاتهم ولا أتكلم عن اللغة من حيث هى عربية أو عامية أو أسبانية ولكن من حيث هى أداة تفاهم بين جميع أفراد الامة الواحدة ، وودت لو أنقلبت هذه الأمة بين عشية وضحاها إلى عربية »

إلى أن يقول :

« أكبر عيوبنا التعامى عن الحاضر والذهول عنه ، وسيظل هذا الحاضر مظلماً لا ينفع من يعيش فيه مادام كتابنا الذين اهتدوا الى ادب القوة وادب الضعف وعرفوا الاساليب وفرقوا بين الرياليزم والايد ياليزم لم يكتشفوا بعد أدب الاسعاف وهو الأدب الذى تحتاجه الأمة المصرية فى هذا الحاضر مما أحوجها مثلا إلى معرفة «البكتيريا» التى عرفها باستور وصاح فى الناس بينهم إلى ما يحيط بهم من جنود الطبيعة ، ورغم ما وضع من الكتب فى هذا العلم باللغة العربية وبالأساليب العامية والتعابير الرصينة فلا يزال العلم بالبكتيريا خاصاً بالدكتور خليل عبد الخالق وجماعة الأطباء ، وكان من رأى أن أقول :

يامرات فيهم يامرات قدرى يامرات يعقوب
تعا اسمعوا يعوض صبرى زجل المكروب

***

الميكروبات حامية وعامية وناقصها اللون
الواحدة منها فى الثانية تولد مليون

***

الميكروبات دى ما أرذلها ف جسم الانسان
غير السبرتو مايقتلها ولا الغليان

***

إوعى الهدوم إوعى الفوطه إوعى المواعين
دى عدت الموت محطوطه عند الوسخين »

***

ويقول بيرم بعد هذا «ولكن من يتكلم بهذه اللغة تأخذه الصيحات من كل جانب . لاتكتبوا بالعامية . لاتفسدوا الأذواق ، لاتقتلوا الفصحى الغالية ، وهو صياح من يغار على برنامج دانلوب الذى يحول بين الشعب وبين كل معرفة صحيحة »

ثم يستطرد بيرم بعدذلك فيقول . « ليس كل من يكتب بالعامية يعد من انصارها والعمل على جعلها لغة قومية ، فقد تكون بغيضة إليه مما تجره من تطاول العامة وسخر الخاصة وكثرة من يستعملها من الكتاب المتفاكهين ، ولكن هناك من يلذ له اجتماع المصائب فى سبيل رسالته ، وهناك من يهرب منها ويقف على منبر ابن جلا وطلاع الثنايا والفرق بينهما ظاهر »

هذا هو رأى الاديب الشعبي الكبير بيرم وقد أطلت فى بيانه بالاقتباس منه لأنه يمثل كل التمثيل مذهب الذين يؤثرون أن يكون أدب الشعب . على أن تطور المدنية سيحتم على لغة الكتابة ولغة التخاطب أن تندمجا بعد زمن قصير أو طويل ، وقد كان لبعض الأدباء فضل التقريب بينهما وعلى رأس هؤلاء الشاعر المصرى الرقيق البهاء زهير الذى يقول :

بروحى من أسميها (بستى) فتنظرنى النحاة بعين مقت
يرون بأننى قد قلت لحنا وكيف وأننى لزهير وقتى
ولكن عادة ملكت (جهاتى) فلا لحن إذا ما قلت (ستى)

وفى مصر الآن جهود موفقة فى سبيل هذا التقريب يقوم بها فريق من الأدباء الذين يحملون لواء الجديد .

وأظهر ألوان الأدب الشعبى ، بل اللون الغالب على سائر فنونه هو الزجل ، وهو الذى سنخصه بمعظم هذا الحديث .

لم يعن التاريخ بمعرفة متى نشأ الزجل وأين ، ولكن أقرب الروايات إلى الصدق أنه نشأ فى الأندلس كنتيجة لاستحداث التواشيح وما اليها من الألوان الجديدة فى الشعر ، قال إبن خلدون :

« لما شاع فن التوشيح فى أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا فى طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن

يلتزموا فيه إعرابا واستحدثوه فنا سموه بالزجل والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد ، فجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة » وقد ذكر ابن خلدون أن أول من افتن فى هذه الطريقة هو أبو بكر ابن قرمان وذكر بعض نماذج من أزجاله باللغة الشعبية الأندلسية وهى تختلف طبعا عن لغتنا الشعبية الحاضرة.

ومن أوائل رواد الأدب الشعبى فى عصر الشيخ احمد ابن عروس وكان من العلماء ، ويقال إنه كان من المستهترين الماجنين وإن له نظما كثيرا فى المجون ثم رجع عن ذلك ونظم فى الحكمة ، ولم يصلنا نظمه الأول الماجن وإنما وصلنا نظم له عنوانه « هذا ديوان احمد ابن عروس لما تاب الله عليه » ، ونظم ابن عروس يميل إلى الوعظ والحكمة فى أسلوب سهل خفيف الروح ، وهذا هو سر تعلق العامة به ، فانهم يحفظون منه الشىء الكثير ويتندرون به فى أسمارهم .

وهذه أمثلة من نظم ابن عروس ، قال :

ما يرقد الليل مغبون ولا يقرب النار دافى
ولا يطعمك شهد مكنون غير الصديق الموافى

وقال :

مسكين من يطبخ القلقاس ويريد مرقا من حديد
مسكين من يصحب الناس ويريد من لا يريد

وقد برع فى الزجل قديما فى مصر غير ابن عروس شعراء عديدون منهم الغبارى وكان اميا من أصحاب الحرف . وقد عثرت بكتاب مطبوع فى باريس سنة ١٨٩٣ عنوانه بالعربية « مجموعة أحمال زجل مصرية »، وقد جمعها «م. بدريان» وهو من المشتغلين بعلم الآثار ، والكتاب يحوى طائفة من الأزجال والمواويل من نظم أدباء لم نسمع بهم كالشيخ أبو عفان والشيخ محمد العنانى والبهلول ، ومن محتوياته جانب كبير من المدائح النبوية والمنظومات الدينية .

وكانت تصدر حول ذلك التاريخ أيضا مجلة فى مصر اسمها «الأرغول» تعنى بالأدب الشعبى عامة وبالزجل خاصة ويحررها الشيخ محمد النجار وكان زجالا وهو من العلماء النحويين .

وقد اهتم بالأدب الشعبى ونظم أزجاله الأديب المشهور الشيخ عبد الله نديم ونظم الزجل

كذلك الشيخ احمد القوصى وكان من علماء اللغة وحفنى بك ناصف الشاعر المعروف وعثمان بك جلال الذى نقل بعض أقاصيص عن الشاعر الفرنسى لانونتين الى الزجل ونشرها فى كتاب أسماه «العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ». ومن الأدباء الشعبيين المحدثين عزت صقر وإمام العبد وخليل نظير. ومن المعاصرين بيرم التونسى ورمـزى نظيم وبديع خيرى ومحمد عبد النبى وغيرهم ، وقد كنت أريد أن أتحدث عن فن كل من هؤلاء المعاصرين وأذكر هنا أمثلة منه ولكن خوف الاطالة يجعلنى أؤثر أن أقصر الحديث على زعيمهم وإمامهم الأديب الموهوب محمود بيرم التونسى الذى أشرف بفنه على الغاية فسبق به زمنـه وكان الرائد المتبوع من كل معاصريه ؛ يقول اليوم مايرددونه غدا

ولد بيرم فى حى «السيالة» بجهة رأس التين بالاسكندرية وشب فيه ، وقضى شطراً من صباه يتلقى العلم فى معهد الاسكندرية على الطريقة الازهرية ، وأتيحت له بعد ذلك دراسات مختلفة أخرى غير منتظمة ، واشتغل بالأعمال الحرة حين بدأ فنه يوجه اليه الأنظار ؛ ثم عمل فى السلك الصحـفى وقد أخذت عبقريته تتلألأ وأصدر مجلته المشهورة «المسلة» التى لم يستطع الحصول عـلى ترخيـص باصدارها فأقدم على اصدارها بدون ترخيص بعد أن جعل اسمها «المسلة» وكتب تحته بالخط العريض «لاجريدة ولا مجلة» وتحلل بهذا الوصف من قيد الحصول على الترخيص .

وكان بيرم فى شبابه فى مستهل الحركة الوطنية شعلة تلهب من الحماسة فلم تخل آثاره إذ ذاك من حدة زلت به فى إحدى المرات زلة أبعد بسببها عن الديار المصرية ، ومازال مبعداً عنها إلى اليوم ، وقد رأى بيرم فى غربته من الويلات ما لا يخطر على بال انسان فكفر بذلك عن زلته كل التفكير ، ومن واجب كل أديب منصف فى هذا البلد أن يردد مع الدكتور أبو شادى ماذكره عن بيرم فى المجلد الأول من مجلة «أدبى» حيث قال :

«ليس للعبقرية قانون ولا ميزان ، فهفواتها مغفورة لأنها ليست بالهفوات فى عالمها ، واذا كان الشاعر معروف الرصافى لم يغضب المغفور له الملك فيصل بالرغم من شططه أحيانا شططاً موجبا للمؤاخذة الشديدة ؛ فما كان اجدى أهل الرجعية بالتدبر حينما أساءوا التجريح لأدب بيرم وعملوا على نفيه من

مصر ، وهو من يجدر بنا أن نفتخر بوجوده على ضفاف النيل »

إلى ان قال :

« والآن إذ نستقبل عهداً جديداً من الحرية الفكرية لايسعنا فى ولاء صميم وتأميل عظيم إلا أن نلتمس من جلالة الملك فاروق الأول أن يأذن بعودة هذا الأديب العبقرى الى ربوع الوطن ، وكفى الوصمة التى لحقت بنا لانه من جراء الظلم الفادح الذى ناله ، حرم الادب المصرى الشعبى الكثير من جهوده المنقطعة النظير »

قاسى بيرم فى منفاه آلاما تذيب فى النفس أى رجاء ، وتميت كل أمل الحياة ! وقد نال ذلك من كل شىء فيه الا من فنه إذ ازدهى ونضج وبلغ حد الاعجاز ، ولم ينل من حياة صاحبه إلا ما كانت تكسوه فى كثير من الاحيان من سحب الحزن والأسى ، ولكنها كانت تزيد من فتنته ومن إعجازه

إن ميزة بيرم إلى جانب تفرده بطريقته وأسلوبه هى التعمق فى النظرات الاجتماعية الشاملة التى يفيض بها عقل مصلح كبير تتجلى براعته على الاخص فى درس الناس وفهم الحياة .

وقد ابتدع بيرم ألوانا جديدة فى الزجل تابعه فيها معاصروه ، فهو أول من نظم «على الأزغول» على الطريقة المعروفة الآن ، وأول من نظم فى القصص الشعبي (البلدى) على النسق الذى جرى عليه بعده الكثيرون ، وبيرم هو الأديب الوحيد الذى قدم للمسرح المصرى روايتين زجليتين هما «ليلة من الف ليلة» و«عقيلة» وقد مثلتها «فرقة السيدة فاطمة رشدى» من سنوات وكان نجاحها كبيراً ولست أعدو الحق إذا قلت أن ليس بين معاصريه — على مقدرتهم — من يستطيع أن يبلغ شأوه فى ذلك .

ان المقام لايتسع لى إذا أردت أن اتحدث عن بيرم كما أحب ، وحديثه عندى طويل ، ولكننى لن أترك هذا الحديث قبل أن أذكر هنا بضع نماذج سريعة من نظمه .

قال بيرم وكان قد سمع أن العفو عنه سيصدر فى عيد الاضحى فمر العيد ولم يصدر العفو :

يوم الدبايح كان   آخر مواعيدك

وقفت لك فرحان   أنصب رايات عيدك
وافرش لك الريحان   واسمع زغاريدك
زعق غراب البين   فصلت أكفانى

* * *

خيبة أمل ومرام   واعر ومتعسر
ياريته كان فى منام   يصبح ويتفسر
أو حكم بالاعدام   ع الناس بيتسطر
ما كان تشوف العين   حالى اللى بكانى

* * *

«عالسين» يامصر مشيت   إياك يسلينى
عليه عبد جوليت   تركى على صينى
ياما التقيت ورأيت   جمال ينسينى
واتفكر الهرمين   تجرى الدموع تانى

وقد ذكرت هذه المقطوعة باكملها لانها تصور من بيرم الذى يجمع إلى قوة المعنى بساطة النظم وعبقرية الروح ، ولكننى سأذكر هنا الآن مقتطفات من بعض مقطوعاته بغير تعليق لانها فى الواقع غنية عن كل تعليق

قال بيرم فى مقطوعة قصصية على طريقته المبتكرة تحت عنوان «البلدى» :

أهل المعارف يقولوا الناس بالمقامات   لا بالملابس ولا بالأكل والركوبات
كام من غنى بالادب لابس هدوم شحات   ومن غجر فى البلد دى واسمهم بهوات

* * *

رأيت ركوبة بتتمختر بواحد بيه   راكب وراشق فى ضهر العربجى رجليه
سألت من تخن صدغة أهل حارته عليه   قالوا دا تاجر خضار عنده سبع عتبات

وقال فى مقطوعة اجتماعية «على الربابة» تحت عنوان المنبوذين :

يامنبوذين الهند كفوا دموعكم | دى مصر فيها المنبوذين ملايين
من منبوذين حافيين يلموا سبارس | ومنبوذين ماسحين جزم دايرين
ومنبوذين فى البيت عشاهم فلافل | فى العيد وأيام السنه جايعين
ومنبوذين ضايعين مايعرف خبرهم | ونا اللى فيهم ينسمع لى أنين

ومن قطعة على طريقته الجديدة التى استحدثها «على الارغول» عنوانها «مصر»

يا مصر تتحدث الاملاك بجمالك
فى وحى جبريل
قبل فرعون وموسى الشمس ضاحكالك
فى صفحة النيل
حسنك لوحدك لانسوانك ولا رجالك
من جيل وراجيل

* * *

فى وحى جبريل قصايد اسمها «سينا»
منقوشة بالنور
فى صفحة النيل مرايا للحياة زينة
قدامها جمهور
من جيل وراجيل ومن خوفو ورا مينا
وكل طرطور

ولبيرم فى تأبين شوقى زجل طويل ألقاه فى حفلة تأبين أقيمت فى باريس، قال فيه:

وقفت أرثيك بصوتى | والصوت على البعد خافت
موتك وياريته موتى | أنطق لسان كل ساكت
ومين حايسمع خفوتى | فى ميتمك لما ناحت
النواحين فى البوادى | والمنشدين فى العواصم

ومنه :

تسأل باريس عن غيابك　　وأنت عارف جوابها
دى مكتبك فى شبـابك　　وملعبك فى شبـابها
وصفتهـا فى كتابك　　يوم كنت تخشى خرابها
لو كانت تقـدر جميلك　　تنصب عليك المياتم

وله زجل فى رثاء الطيارين المصريين دوس وحجاج اللذين نكبت مصر بمصرعهما فى أثناء عودتهما للوطن ، هذا هو :

البحر ماج بالسفين حتى غلب ريحنا
والجو اهو ماج
بجن فوق السحاب تلعب بأرواحنا
طايرين فى أبراج
باب السما واتفتح والناس بتجرحنا
فين دوس وحجاج

* * *

فين دوس وحجاج قالوا فى الطريق جايين
ركبك على الصبر
طايرين فى أبراج وخاطرك ينجبر ياحزين
يا طالب الجبر
والجو اهو ماج وليه حجاج ودوس داخلين
يتحطوا فى القبر

* * *

يتحطوا فى القبر هاويين من أعالى الريح
والريح دا غدار
ياطالب الجبر قدامك منـاك فى ضريح
والموت ماهوش عار
ركك على الصبر دول ماتو وهم مجاريح
صابرين على النار

« * »

ولبيرم مقطوعات غزلية رائعة ولـكنه ينحو فى اكثرها نحوا صريحا قد لا يرضى بعض الناس وسأذكر على سبيل التعريف مقطوعة صغيرة من نظمه فى هذا النوع:

سبح الخالق اللى زينها
بالجمال دنيا سايبه نسوانها

« * »

شوف لى من فضلك اللى جايالى
شابكة بالوردة صدرها العالى

« * »

وام شعر أصفر انصبغ موده
لجل يهوسنا والعيون سوده

« * »

واللى لابساها ربع برنيطه
ثم عوجاها ، ثم شابكاها
ثم رابطاها عقده وشنيطه

ولبيرم قطعة رائعة « على الارغول » عن الورد نقتطف منها :

ياورد أستنظرك قبل الربيع بربيع

وأوهب لك العمر

وأجعل لأهل الملامه فى غرامى شفيع

أوراقك الحمر

شوف رقتك علمتنى أبقى عبد مطيع

للبيض وللسمر

وأوهب لك العمر ياللى عمرك انت قصير

ويقصر الهم

أوراقك الحمر تشرب دم قلبى عصير

ياغلى من الدم

للبيض وللسمر تهدى وأنت حر أسير

تنباس وتنشم

وقدنظم ببرم فى ذكرى صديقه الموسيقى الفنان المرحوم سيد درويش زجلا رائعاً ليلقى فى حفلة إحياء ذكراه فى العام الماضى وهذا هو :

اتعـــد يومك	واحسب	من	مهرجانات الأدب
فيه القصـــايد	والخطب	ترن لك	مطنطة
يومك مخلد	للأدب	والناس	عشيتها بالمدد
ربك خالقهم	للهدد	وانت خالقك	للبنا

« ٥ »

والنـــاس بتبني	مجـدها	لـكن لها	ولنسلها
وانت كنوزك	كلها	خلفتها لنـا	كلنا

* * *

يبنوا المفاخر بالحجر ويزولوا هما والأثر
وضربه منك على الوتر علىٰ الزمان متسلطنة
كنا همل بين الامم لولا الهرم والكام صنم
خليتنا ننطق بالنغم ونقول لهم مين زينا

« • »

ونقول لهم ببغدده فى الفن مصر « السيده »
ما يكونش أحسن من كده أنعام وروح متلحنه

« • »

الجاحد اللى يحسدك معذور إذا كان يجحدك
ليه بس لما يقلدك يقول أنا رب الغنا ؟
آهات كثير سمعتها وأنت عشقت وقلتها
« آه » م الفؤاد طلعتها حسيتها من قلبى أنا

« • »

شوف محفلك لما انفتح بنغمتك أصبح فرح
وكان يدور فيه القدح لو كنت يا « سيد » هنا

هل لى أن أتمنى قبل أن انتهى من هذا الحديث أن تقوم فى مصر رابطة تجمع محبى بيرم فتسمى مثلا « جمعية أصدقاء بيرم » على نسق الجمعيات التى تؤلف لتقدير النابغين من رجال الادب والفن فى أوربا ، على أن تتولى الاتصال بهذا الفنان الموهوب وتنظم له وسائل نشر آثاره الجديدة التى تضيع الآن بين الاهمال والجمود ، وتتولى العناية بمسألة عودته الى مصر عند أولى الامر ؟ ان فى هذا بعض الترفيه عن نفس هذا العبقرى المجحود الفضل وفيه من روح الانصاف والتقدير ما يدعونى إلى أن أرجو أن يتولى صديقى الاديب المنصف والشاعر الانسانى الدكتور أبو شادى هذه الفكرة برعايته فانها فى حاجة الى نفحة من روحه التى طالما أحيت وأثمرت

كتب الشهر الجديدة

ابراهيم باشــا

تأليف بيير كربتيس وترجمة محمد بدران

صفحاته ٢٩١ من القطع الكبير نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر

بيير كربتيس مؤلف أمريكى اشتغل قاضيا فى مصر وأرصد فراغه لدرس حياة عظماء الأسرة العلوية . وهذا الكتاب فى تاريخ ابراهيم من أحسن ما يزين المكتبة التاريخية المصرية الحديثة . فان شخصية ابراهيم من الشخصيات الغامضة ويرجع كثير من غموضها الى أن شخصية محمد على ابيه قد غمرته . ومن أحسن فصول الكتاب ذلك الفصل الذى يثبت فيه المؤلف سخافة الاشاعة التى اذاعها خصوم إبراهيم حين زعموا أنه ليس ابن محمد على وإنما هو متبناه فقط

وقد تتبع المؤلف حروبه فى جزيرة العرب مع الوهابيين . ثم حروبه فى السودان والمورة ومعركة نوارين ثم حروب الشام . واعجاب المؤلف بابراهيم باشا كبير جدا بل لعله أسرف فى ذلك فان المترجم به كان بطلا فى الحرب ولكنه لم يكن كذلك فى السياسة

ولغة المؤلف سلسلة بل لا يكاد يشعر القارىء أنه يقرأ كتابا مترجما . ولكن بعض الأغلاط اللغوية تستحق عنايته مثل :الضغط عليه (٤) ولم يصله المال (٤) ويستند على (٧) وتفضيله عن (٧) والمكلفون بالخدمة (١١) وتعذر بمعنى صعب (١٠) الخ

والطبع نظيف أنيق

الضرائب ومصروفات الدولة

تأليف روفائيل مسيحة . صفحاته ١٠١ من القطع الكبير
طبع بمطبعة المجلة الجديدة بالقاهرة

يبحث هذا الكتاب فى الضرائب وانواعها . ثم فى المصروفات العامة التى تنفقها الدولة . وبه

فصول عن ضرائب الارض . والمباني . والرءوس . والدخل . والتركات . والضرائب غير المباشرة وبعض ايرادات الدولة الاخرى . وفى ظروفنا الجديدة يجب أن ندرس مثل هذا الكتاب الذى ينير لنا الطريق لزيادة ايرادات الدولة . واليك ما يقول المؤلف فى المقدمة :

ولقد تعددت الضرائب فى المجتمع الحديث ، فقلما يجد الانسان شيئا خاليا من الضرائب فالثياب التى يرتديها الفرد والمأكولات التى يتغذى بها والمسكن الذى يأوى اليه والكتاب الذى يقرأه والملهى الذى يروح فيه عن نفسه كل هذه موضوعات للضرائب فالفرد يكاد يكون مجموعة متحركة من الضرائب . ولهذا فقد اصبحت متصلة بحياته اتصالا وثيقا . ولا تقل سياسة الحكومة فى المصروفات العامة اثراً فى حياة الفرد عن سياستها فى فرض الضرائب . وهذا يدعو المواطن الى الاهتمام بهذه الامور وتفهم طبيعتها

ومن الضرورى لمن يريد أن يتبين النزعة السياسية لحكومة ما — اهى حكومة بورجوازية تروج مصالح القلة من الرأسماليين أم هى حكومة شعب تكرس جهودها لجمهور المواطنين ، هل الحكومة اداة اصلاح ام اداة استغلال — لا بد لمن يريد أن يقف على هذا ان ينظر فى نظامها المالى اى أوجه الدخل وأوجه الانفاق . فالنظام المالى لأية دولة هو ترمومتر الديمقراطية الدقيق الذى لا يخطىء ولا يكذب

لهذه الاعتبارات كلها زاد الاهتمام بدراسة المالية العامة خصوصا فى الدول الاوربية فأن المطابع عندهم تخرج عشرات المؤلفات سنويا تعالج هذا الفرع الهام من العلوم الاجتماعية بينما لا يزيد عدد مثل هذه المؤلفات باللغة العربية عن ثلاثة أو أربعة . فحبذا لو اتجه المؤلفون عندنا الى العناية بهذا الفرع الهام المهمل .

خواطر عن البشرية

بالانجليزية تأليف الدكتور زكى أبو شادى صفحاته ١٢٠ من القطع الصغير طبع بمطبعة التعاون بالاسكندرية

ننصح لجميع قرائنا الذين يعرفون الانجليزية أن يقرأوا هذا الكتاب فانه خواطر واراء وافكار رجل متمدن عصرى الثقافة والنزعة عالمى الوطنية ، وقد عقد فصولا عن تربية البشر . والعبقرى

والديموقراطية ازاء الديكتاتوريه • والديانات ازاء التقدم البشرى . والمساواة بين الجنسين والديمقراطية الاقتصادية .

وكثير من هذه الاراء يعرفها قراء هذه المجلة لاننا لا نكاد نعرف موضوعا ونكتب فيه وتجدنا مختلفين عن زكى أبو شادى . ولكن ميزة هذا الكتاب أنه خلاصة مستقطرة للاراء الحديثة مكتوبة بقلم مهذب فى عبارة سهلة تساغ وتفهم

أخبار أبي تمام

تأليف أبي بكر محمد الصولي . قام بنشره وعلق عليه خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام . ونظير الاسلام الهندي . صفحاته ٣٤١ من القطع الكبير نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر

هذا الكتاب فى اتقان طبعه وتحقيق عباراته وأسانيده يشبه الكتب التى يقف المستشرقون على نشرها . والثلاثة الذين قاموا بطبعه هم من خريجى كلية الآداب . وهذا الكتاب هو البرهان على أن المجهود الذى يبذل فى هذه الكلية ليس عبثا

وابو تمام من فحول الشعراء كما أن أبا بكر الصولى من فحول الكتاب النقدة . وهو ينتقد على الطريقة المألوفة فى أيام الدولة العباسية أو أوائل أيامها . وقد كتب الاستاذ احمد امين مقدمة مفيدة جاء فيها قوله :

من هذا النوع الجيد الذى اغتبط به ، وأعدنى سعيدا بتقديمه ، هذا الكتاب ، كتاب «أخبار أبى تمام للصولى » فقد أعجبنى من ناحيتين : ناحية موضوعه ، وناحية نشره .

فموضوعه كما يدل عليه اسمه أخبار عن أبى تمام وعلاقته بمن مدحهم ، كاحمد بن أبى دؤاد ، والحسن بن رجاء ، وابن الزيات ، وعلاقة العلماء والأدباء به ، وكيف كانوا يقومون شعره . والكتاب قيم من ناحية أنه يجلى لنا بعض نواح لأبى تمام لم تعرفها فيما قرأنا فى غيره من الكتب ومؤلفه الصولى ثقة فيما يرويه ، قريب عهد بأبى تمام ، له بصر بالأدب ، وذوق جيد فى التقدير . والكتاب مكمل لسلسلة من الكتب ظهرت فى عصر الصولى أو قريب منه .

ذلك أن أبا تمام خرج على الناس بنوع جـديد من الشعر أخرجه من رأسه لا من قلبه ، فهو يغوص على المعانى العقلية غوصاً ، ثم يرفعها الى السماء ويعمل فيها خياله البعيد ، ويختار لها الالفاظ ويعنى ببديعها وجناسها ؛ فتم له من معـانيه العميقة الى القاع ؛ وخيـاله المرتفع الى السماء ؛ وألفاظه المتجانسة المزوقة ؛ نوع جديد من الشعر لم يسبق اليه ؛ نعم ان كل جزئية من هـذه الجزئيات قد سبق اليها ؛ فقد سبقه مسلم ابن الوليد بكثرة البديع والجناس فى شعره ؛ وسبقه أبو نواس وبشـار بكثرة المعانى وغزارتها ؛ ولـكن كل هذه الجزئيات — مبالغا فيها — لم تجتمع لأحد قبل ما اجتمعت لأبى تمام .

وشأن الجديد فى كل عصر ، وفى كل علم وفن ، ان يثير جدالا ، وان يقسم الناس الى معسكرين معسكر ينصره ، ومعسكر يخذله ، وان يشتد القتال بين المعسكرين .

وكذلك كان الحال فى أبى تمام : فقد أتى بجديد فتنازع العلماء والادباء فيه ، فأما من تعصب للقديم كابن الاعرابى ، فـكرهوا أبا تمام وكرهوا ما جاء به من شعر جديد وقالوا : انه خرج عن عمود الشعر المعروف . وأما من مرن ذوقه وعقله ولم يتقيد بقديم ، فقد أعجب بأبى تمام أيما اعجاب وخاصة من تفلسف ذوقه وعمق فـكره وبعد خياله واستطاع أن يفهمه ؛ لان أبا تمام كان يغوص فى الغالب أو يرتفع حتى لا يدركه إلا الخاصة .

وشاء القدر أن يعاصره البحترى ، وهو قريب المعنى حسن الأسلوب ، لا يغرب إغراب أبى تمام ، ولا يبعد عن عمود الشعر بعد أبى تمام ، الى ديباجة مشرقة وسبك محكم ، فساعد وجود البحترى على انقسام الادباء والعلماء ، وخلف هذا الانقسام ثروة من النقد الادبى لم نظفر بمثلها فى أى عصر سابق فألف الآمدى كتابه « الموازنة بين أبى تمام والبحترى » يتعصب فيه للبحترى من وراء حجاب . وألف الصولى هذا الـكتاب يتعصب فيه لابى تمام ؛ وحكى لنا هذا وذاك الاراء المختلفة والحرب العوان بين المدافعين والمهاجمين ؛ وتولد من كل ذلك آراء قيمة لها شأنها فى النقد الادبى عند العرب فمؤرخ النقد سيجد فى الحركة التى كانت حول أبى تمام والبحترى ثروة واسعة ومادة ضخمة ، يجد فيها القول ذا سعة ، وعلى رأسها هذا الـكتابان القيمان « الموازنة ، وأخبار أبى تمام » وقد مضى زمن كنا لا نسمع فيها الا نغمة الانتصار البحترى من الآمدى ؛ فـكان فى هذا الـكتاب الذى

بين أيدينا الآن ما يعدل هذه النغمة ، ويلطف هذه الحدة فتجاوب النغمتان . وتتعادل الكفتان ويكون أمام القاضي العادل أقوال الخصوم والمؤيدين تامة فى غير نقص

عن الموت

تاليف وهبه موسى صفحاته ١٢٧ من القطع المتوسط , طبع بمطبعة المجلة الجديدة

يعرف القراء مؤلف هذا الكتاب بكتابه الاخر «الطبيعة كطبيب» وهو هنا يعالج هذا الموضوع الدقيق بالروح الفلسفي ويرى ان الموت ليس شاقا . ونحن ننقل ما يلي كنموذج لتفكير المؤلف

فمن ذلك كله يتضح لنا أننا نحن والحيوانات والنباتات وكل ما فى هذا الكون « ارادة واحدة» وفقط تختلف بعضها عن البعض الآخر بالعقل . فبينما نرى الجمادات والنباتات قد حرمت منه بينما نرى الحيوانات والحشرات قد امتازت به عنها ولو أن هذا الامتياز يختلف كثيرا من البعوضة مثلا للانسان

والعقل ما هو إلا «مصباح» اتخذته الارادة فى بعض مظاهر الكون «أى فى الحيوانات والحشرات » كما رأيت لينير الطريق أمامها

ومن هنا نلمح من الان أن كسر المصباح ليس معناه كسر من يحمل هذا المصباح أى أن ذهاب العقل واندثاره بالموت ليس معناها اندثار الارادة وفنائها تلك الارادة التى هى الجوهر أى الجزء الذى عليه المعول كما أسلفنا القول . وان مما يقرب لافهامنا هذه الوحدة فى الطبيعة أى « وحدة الارادة» الطبيعية عموما هو ما نشاهده فى النباتات والحيوانات فاننا نراها على السواء تولد ثم تستمر مدة من الزمن ثم تموت . وذلك بعد أن تمر فى أدوار الطفولة ثم الكهولة ثم الشيخوخة . وبعد أن تكون قد انسلت نسلا يخلدها

« فمن ذلك نلمح وحدة الاساس رغما عن اختلاف تلك المظاهر المتعددة . هذا من جهة. ومن جهة أخرى فنحن لانرى الحقائق أى لا نرى الدنيا الحقيقية . وانما نرى فقط خيال الدنيا الحقيقية».

كتابان للمقتطف

أصدرت مجلة المقتطف كتابين هديتين لقرائها هما كتاب هندسة الكون بحسب ناموس النسبية للاستاذ نقولا حداد . والاخر كتاب فى مصر الاسلامية لستة مؤلفين مختلفين. والاول كما

كما يرى القارىء علمى قد حاول المؤلف ان يجعله مفهوما وقد نجح الى حد كبير اذا اعتبرنا انه يعالج مسألة من اعوص مسائل الطبيعيات الحديثه . والثانى تاريخى يصف مصر فى العصور الاسلامية وهو مزين بالصور

كتابان للمجلة الجديدة

أصدرت المجلة الجديدة فى شهرى سبتمبر وأكتوبر الماضيين كتابين هديتين لمشتركيها الذين سددوا سنة ١٩٣٧ . وهما كتاب « صور ولمحات من حياة طالب فى اوربا » وهو فصول سهلة كتبت بلهجة المسامرة عن فرنسا وانجلترا وغيرهما تأليف الاستاذ جورج وهبه . والثانى كتاب «تاريخ الثورة العرابية» تأليف الاستاذ انور زقلمه . وقد زكى المؤلف عرابى واثبت باسانيد كثيرة بطولة عرابى واخلاصه للوطن وتجنى اعدائه عليه ومحاولتهم غمط جهاده

كتب اخري

«لماذا أنا ملحد» . للدكتور اسماعيل احمد ادهم . رسالة قصيرة يدافع فيها المؤلف عن الالحاد

«دليل تاريخى للكنائس» رسالة قصيرة فى هذا الموضوع قامت بطبعها مطبعة النيل المسيحية بالقاهرة .

«رسائل الجندى دودنج »

رسائل يزعم مؤلفها انه تسلمها من روح فى العالم الاخر . قام بترجمتها الاستاذ السيد مصطفى العلوى

«اتفاق الغاء الامتيازات فى مصر» . قام بطبع النصوص الاصلية لهذا الاتفاق الاستاذ اسكندر خورى . وهى بالعربية والانجليزية والفرنسية

في الحياة والعمل

بقلم سلامه موسى

ضريبة الوفاة

كيف نتقي الجريمة

انتاج يزيد وعمل يقل

درس الكيمياء

اللبن وكلية اسيوط الامريكية

الصحف وفضائح الحب والزواج

نحن وتحريم الخمور

مساعدة الصحافة

ضريبة الوفاة

قبل أسابيع مات اللورد رنسيمان أحد الاثرياء الانجليز وخلف ثروة قدرت عند وفاته بمبلغ ٤٥٣ ر ٣٨٨ ر ٢ جنيه وقد حصلت الحكومة الانجليزية من هـذه التركة على ضريبتها فبلغت ١٣٠ ر ١٧٦ ر ١ جنيه

أى أن الحكومة استولت على نصف التركة تقريباً وتركت للورثة النصف الآخر . وهـذه الضريبة من الضرائب العادلة التى تجبيها الحكومات الأوربية من الاغنياء — والأغنياء فقط — لكى تغذى بها خزانتها وتقوى بها ميزانيتها لكى تقوم بالنفقات العظيمة التى تحتاج اليها البلاد سواء فى الاصلاحات الاجتماعية أم فى المعدات الحربية

والتركات الصغيرة التى لاتزيد على خمسة آلاف أوستة آلاف جنيه قلما تجبى عنها ضريبة عند الوفاة ولكنها بعد ذلك تتدرج فى سلم فتزيد النسبة المئوية فى الضريبة كلما زادت التركة ؛ فان مايؤخذ عن تركة تبلغ عشرة آلاف جنيه قد لايبلغ واحداً فى المائة ولكن فى التركة التى تبلغ مائة الف جنيه قد تبلغ عشرة فى المائة وهكذا تسير الضريبة فى تدرج صعودى كلما ذاد مقدارها حتى تبلغ أحياناً خمسين فى المائة كما رأى القارىء فيما جبته الحكومة الانجليزية من تركة اللورد رنسيمان الذى مات قبل أسابيع

وعدالة هذه الضريبة تتضح عندما نعرف أن الثروات تؤول الى التجمع فى أيد قليلة إذ لايمكن الثرى الذى يبلغ دخلة عشرين أو ثلاثين الف جنيه فى العام أن ينفقه كله . فهو مضطر الى أن يوظف معظمه فى عقارات جديدة . فلا يبلغ السبعين أو الثمانين حتى يكون قد حوى مقداراً ضخما من العقارات . ولكن ضريبة الوفاة تعيد التوازن لانها تفتت الثروات الضخمة فتنشط الدورة الدموية

فى شرايين الجسد الاقتصادى ويزول ذلك التفاوت العظيم بين الغنى والفقير وهو التفاوت الذى يرى عند بعض الامم التى لاتعرف هذه الضريبة

والحكومة المتمدنة فى حاجة هذه الايام الى تكاليف كبيرة جداً لأنها تؤدى إعانات كبيرة لجيوش العاطلين وهى تمنح المسنين الذين بلغوا السبعين أو الخامسة والستين معاشات سخية سائر حياتهم . وهى أيضا تبنى المنازل للعمال . وهى تؤدى المعونات الكبيرة للمرضى وللنساء قبل الولادة وبعدها . وهى تقوم بنفقات عظيمةفى التسليح وفى إيجاد المعدات الحربية ،ويذكر القراء أن الحكومة البريطانية قررت انفاق ١٥٠٠ مليون جنيه فى السنوات الخمس القادمة على قواتها الجوية والبحرية . ومثل هذه التكاليف تضطر هذه الحكومات الاوربية الى فرض الضرائب التى تعد فى نظرنا باهظة مثل ضريبة التركات

ونحن نحب أن نرى مثل هذه الضريبة فى مصر . وذلك لجملة اعتبارات

أولها — انها لن تكلفنا كثيرا لانها لن تحتاج الى عدد كبير من الموظفين . فان التركات التى لا تزيد على خمسة آلاف جنيه يمكن أن تترك بلا ضريبة . ثم تتبع بعد ذلك نظاما تدريجياً بحيث تنقص الضريبة كلما كثر الورثة وتزيد كلما قلوا أو بعدوا عن المورث الأصلى. كمانهاتزيد زيادة مئوية فضلاعن الزيادة المطلقة — كلما زاد مقدارها

وثانيا — فى القطر المصرى يثبت الاحصاء أن نصف الارض الزراعية أى نحو مليونى ونصف مليون فدان يملكها أقل من ثلاثة عشرة الف مالك . ومثل هذه الضريبة تفتت هذه الثروات الضخمةوتوزعهاعلى عدد أكبر من السكان

هذان هما الاعتباران اللذان يجعلاننا نمتدح هذه الضريبة ونقول بها فى مصر قبل أى ضريبة أخرى

كيف نتقى الجريمة

ذكرت الصحف أن أسرة فى إحدى القرى بمركز ملوى خرجت الى حقلها حيث زراعتها وكانوا ستة فتربص لهم مجرم وسدد اليهم بندقيته فأصاب خمسة ماتوا جميعهم وأصاب السادس ولكنه لم يمت

ومثل هذه الجريمة لا يقع مثلها بتاتا فى الوجه البحرى ولا يقع شىء قريب منها فى إحدى المدن سواء بالوجه البحرى أم بالوجه القبلى . ولا يمكن أن تتهم إدارة الأمن العام بالاهمال لوقوعها إذ ليس فى مقدورها أن تتعقب الأحقاد فى الصدور وتستكنه نيات القرويين وتتقى الجرائم التى لا يدل على قرب وقوعها شىء

كما لا يمكن أيضاً أن يقال إننا حين نصلح السجون نستطيع أن ننقص هذه الجرائم . فان هذا القاتل لم ير — فى أغلب الظن — سجنا قط . وقصارى ما يؤديه السجن الصالح من الخدمة للمسجون ألا يجعل حاله عند خروجه منه أسوأ مما كان عند دخوله فيه . فان السجون سيئة وهى تعد فاضلة بمقدار ما فيها من الفضائل السلبية أى أننا نحن نقنع منها بأنها لا تضر المسجونين

وهذه الجريمة التى وقعت فى مركز ملوى تحتاج الى الدرس السيكلوجى فى ضوء الظروف المحيطة سواء كانت اقتصادية أم أخلاقية . فقد قلنا أن هذه الجريمة لا يمكن أن تقع فى احدى المدن أو حتى فى الريف فى الوجه البحرى

وعندنا أن السبب لذلك أن الحياة فى الوجه القبلى رخيصة جداً بل هى أحيانا لاثمن لها . فان الصعيدى الذى يعيش فى بعض قرى الصعيد وخاصة فى المديريات النائية نحو الجنوب لا يجد من متع الحياة شيئاً قليلا أو كثيراً مما يحببها اليه . فان طعامه سىء وهو مع سوئه غير كاف . ومكاسبه ليست صغيرة بل حقيرة لا يجد منها ما يكفى لشراء اللباس الذى يزهى به القروى فى الوجه البحرى ويحفظ به كبرياءه الشخصى . وكل ما فى عيشه يدعو الى اليأس اذ ليس فيه ما يسرى عنه سأم الحاجة

بل الحرمان وسأم هذه الحياة الراكدة القاتمة التي لا يخفف منها بصيص من الامل

ولو أن أحد سكان المدن تملكت نفسه هذه الحال لانتحر . ولكن الانتحار ليس طريقة التخلص من اليأس عند أبناء الصعيد الفقراء . بل يبدو لنا أن طريق التخلص هو ارتكاب الجناية . فان الشاب الصعيدى الذى ربما يكون أعزب يكبت فى نفسه شهوات ورغبات لايجد فى الوسط الفقير الذى يحيط به مايتيح لها أن تتحقق . فهو ييأس وفى نفسه كظم دائم . وهذا الكظم ينفجر غضباً جنونيا لاقل احتكاك . فان السبة التى لانباليها فى القاهرة من أحد خصومنا قد تدفعه الى ارتكاب القتل . ونحن نسرى عن أنفسنا مكاره الحياة بالملاهى العديدة التى نراها فى المدن ولكنه هو لا يجد مايسرى به عن نفسه مكاره الصعيد وفقره

وهنا يجب أن نؤكد فقر الصعيد . فان الفلاح فى الصعيد فقير جداً بل أحياناً محروم . وهو اذا لم يكن فى قحط فهو قريب منه . ونظن أننا يحق لنا أن نعد القحط كيفياً وليس كمياً . ومع ذلك نظن أنه فى الصعيد كيفي وكمي

فاذا شئنا أن نتقى الجريمة فى الصعيد فيجب قبل كل شىء أن نصلح الأحوال الاقتصادية بين الفلاحين . ولا عبرة بما يقال عن حبهم للانتقام أو للثأر . فان هذه الاخلاق تتغير اذ أصلحت الاحوال الاقتصادية. واذا وجد القروى أن حياته غالية تستحق أن يعيشها وأن يستمتع بها . اذ هو الآن يجدها رخيصة ولايجد حوله من المتع مايستحق التفاته

ولسنا نجد مايمنع الحكومة من أن تسن قانوناً تحدد فيه أجور العمال فى الصعيد على المستوى الذى يتناوله زملاؤهم فى الوجه البحرى . كما أننا نظن أنه يمكن أن يعين مقدار الايجار للارض حتى يخرج المستأجر وقد فاض له شىء فى الزراعة يكفى قوته بل يكفى كبرياءه ويمنعه من استرخاص حياته هذه الحياة التى يبيعها فى كل وقت بعد أن يقتل خمسة أوستة أشخاص كما حدث فى مركز ملوى . كما نظن أنه يجب تشجيع الزواج بين الشبان حتى يخف الكبت أو الكظم الجنسى . فاننا لا نكاد نصدق أن رجلا متزوجا له أولاد قد زال عنه الكبت من ناحية وارتبط بمسئولية كبيرة فى أولاده من ناحية أخرى يمكنه أن يرتكب مثل هذه الجناية

وليس سكان الوجه البحرى ولا سكان المدن يختلفون من سكان الصعيد سواء من ناحيه السلالة أم من ناحية الاخلاق العامة . ولكن كل الفرق أن الحياة رخيصة جداً فى الصعيد لقلة مكاسب الصعايدة وقلة المتع المحيطة . وهى قلة نرى أثرها فى هجرتهم الى القاهرة والاسكندرية وغيرها

وخلاصة القول أن اتقاء الجريمة فى الصعيد يجب أن يقوم قبل كل شيء على أساس الترقية الاقتصادية للفلاح الصعيدى

انتاج يزيد وعمل يقل

أصدرت الحكومة الانجليزية تقريراً اقتصاديا جاء فيه أن الانتاج الصناعى فى الأشهر الثلاثة الاولى من هذا العام قد زاد على الانتاج فى سنة ١٩٢٩ بمقدار ٢٣ فى المئة . أما الزيادة فى العمال فلم فلم تبلغ سوى ١٠ فى المئة على ما كانوا عليه سنة ١٩٢٩

وهذه هى العقدة التى لاتنحل . لا بل هى العقدة التى تزداد تعقدا . فان المصانع تزيد مصنوعاتها ولاتزيد عمالها . وهكذا يجد العالم المتمدن نفسه ازاء التكدس بالبضائع مع الزيادة فى العاطلين الذين لايقوون على شراء هذه البضائع لعدم كسبهم أو لقلته

أما السبب لهذه الحال فهو اتقان الماكينات وتكميلها من حيث الدقة الفنية حتى تؤدى ما كان يؤديه العامل . أو بكلمة أخرى يعمل الحديد بدل الانسان . ويمكن القارىء المصرى أن يجد مثالا من هذه الحال فى شوارع القاهرة . فان شركه الترام كانت تستخدم نحو ثلاثمائة عامل على مناوبتين فى اليوم لكى ينقلوا الترام من خط الى آخر . وكان كل منهم يقف بعصا من حديد فاذا جاء الترام فتح له الخط الذى يجب أن يسير عليه . ولكن منذ اكثرمن عام اهتدت الى اختراع يجعل السواق يفتح أو يقفل مفتاح التحويل . واستغنت بذلك عن عاملين عند كل مفتاح كانا يتناوبان العمل طول النهار وبعض الليل . ولما كان لها نحو مائة وخمسين مفتاحا فانها استغنت بذلك عن نحو ثلاثمائة عامل اذا فرضنا أن كلا منهم كان يعول أربعة أشخاص فان نحو ١٢٠٠ مصرى قد قطع رزقهم بهذا

الاختراع . واذا فرضنا أن كل عامل كان يحصل على ثلاثة جنيهات كل شهر فان شركة الترام قد اقتصدت بالاستغناء عنهم اكثر من عشرة آلاف جنيه سنويا

فهذ المثل الصغير الذى رأيناه فى القاهرة ولم نكد نحس به يجرى كل يوم فى المصانع الاوربية فان التحسن يطرد والاختراعات تتوالى فى الماكينات فيزيد انتاجها وتزيد مكاسب أصحابها فى الوقت الذى يقل فيه العاملون فيها ويزيد عطلهم وتنقطع أرزاقهم

وهذه العقدة التى قلنا أنها تزداد تعقداً هى التى تجعل أوربا وأمريكا واليابان فى حال مزعجة يساورها القلق الاجتماعى والسياسى والاقتصادى . فهناك عمال هم الآن فى سن الشباب ومع ذلك ليس عندهم أقل أمل فى أن يعملوا ويكسبوا طول حياتهم . بل هم — فى هذا النظام الذى يجعل أصحاب المصانع يستغلون العلوم لزيادة الانتاج بدون زيادة فى العمال — قد وثقوا بأنهم سيعيشون مدى حياتهم وهم عاطلون

ومن هنا تعدد المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية . فان هذه الظاهرة التى تجمع بين الخير العميم فى الانتاج والوفرة العظيمة فى المحصولات والمصنوعات مع العطل والفاقة اللذين يعمان معظم الأمة — هذه الظاهرة قد بعثت الكثيرين على التفكير وعلى الاجتراء على التقاليد والمذاهب وعلى تجربة التجارب المختلفة . ونحن نضرب مثلا من هذه التجارب فى كندا . ففى هذا القطر الذى يقع فى شمال الولايات المتحدة ولاية تدعى البيرتا

وقد رأى رئيس الوزارة فى هذه الولاية وهو رجل يدعى لمستر أبير هارت أن كل زيادة فى الانتاج يجب أن تعود فائدتها على الأمة بأجمعها وليس على صاحب المصنع وحده . وهو يرى — كما يرى دوجلاس الاقتصادى الانجليزى — أن أفراد الامة بمثابة المساهمين فى شركة . وشركتهم هى هذه المصانع والمزارع القائمة فى بلادهم فاذا زاد الانتاج فيجب أن توزع الزيادة على جميع السكان باعتبار أنهم مساهمون فى كل اختراع جديد . وعلى هذا المبدأ طلب من بنك الحكومة أن يوزع على كل ساكن فى البيرتا خمسة جنيهات بصرف النظر عن عمره أو عمله أو استحقاقه

ولكن البنك رفض . وجاءت الحكومة المركزية فى أوتاوا فأيدت البنك فى رفضه

فهذا مثال صغير مما يحدث فى العالم المتمدن الآن من أزمات تجرىء الكثيرين على الوثوب

الى حلول غير مألوفة . والقراء يعرفون ما يجرى فى ألمانيا وبريطانيا والولايات المتحدة وغير هذه الاقطار من مساعدة العاطلين بمرتبات تبلغ أحيانا « كما فى الولايات المتحدة » للرجل العاطل هو وزوجته اثنى عشر جنيها فى الشهر

والخلاصة أن العطل يزداد ولكن الانتاج يزداد أيضا فليس هناك مفر من مكافأة العاطلين على عطلهم . وليس هناك مفر من أن نشكر العاطل فى الأزمة الحاضرة لأنه يستهلك دون أن ينتج . إذ كل ما يزيد الاستهلاك يخفف الازمة التى تتفاقم بزيادة الانتاج

وهذا الكلام غريب . ولكن غرابته تدل على أن العقدة تزداد تعقداً

درس الكيمياء

كتب « محمد حامد شاكر » مقالا فى الاهرام يدعو فيه إلى زيادة العناية فى مصر بدرس الكيمياء . وقد منحته الاهرام مكانا ثانويا فى صفحاتها وبخلت عليه بالصفحة الاولى . وليست الاهرام مختلفة فى ذلك عن سائر الجرائد التى لا تكاد ترى فى مثل هذا الموضوع قيمة بل لعلها تعد مقالا عن أبى فراس الحمدانى أو ابن الفارض أهم وأجذب لنظر القراء

ولكن الواقع أنه ليس فى الحضارة القائمة علم من العلوم هو أهم من الكيمياء ولا اكثر احتمالا للمكتشفات والمخترعات فى المستقبل. ولو كنت ديكتاتوراً فى مصر لاسست جامعة تقتصر كلياتها على درس الكيمياء على هذا النحو :

١ — كلية لدرس كيمياء الصحة والمرض فى الانسان
٢ — وكلية ثانية لدرس الكيمياء الزراعية
٣ — وكلية ثالثة لدرس الكيمياء الصناعية
٤ — وكلية رابعة لدرس كيمياء الحرب

وقبل أيام سأل أحد الاعضاء فى البرلمان وزير المعارف عن قيمة الكيمياء الصناعية وأتضح من

الاجابة أن الوزير لا يكبر من شأنها الاكبار الكافى . وظنى أننا سنعود قريبا إلى هذا العصر الذى كانت الكيمياء فيه الشغل الشاغل للعلماء أيام القرون المظلمة حين كان المشتغلون بها يحاولون عن سبيلها الاهتداء إلى أكسير الحياة أو إلى احالة المعادن الخسيسة إلى معدن الذهب . بل الواقع أن الكيمائيين الآن يحاولون شيئا من هذه المحاولات أو ما يقاربها . ويمكن أن يقال بلهجة التأكيد أنه لا يمكن أمة الان أن تنال الصحة وتتوقى المرض أو تحسن الزراعة أو تتقدم فى الصناعة أو حتى تمهر فى الحرب مالم تدرس الكيمياء بفروعها المختلفة درساً وافياً متشعباً . ولذلك لا استكثر إنشاء جامعة بها أربع أو خمس كليات تقتصر على درس الكيمياء

وأول وأهم فرع فيها هو ذلك الذى يتصل بصحة الجسم ومرضه أى بالكيمياء البيولوجية . فان الجسم الحى هو مادة كيماوية تتأثر بالشمس وتصنع الانزيمات وتنفعل بالخمائر وتموت وتحيا وتمرض بالمركبات الكيماوية العضوية وغير العضوية وليست الفيتامينات التى كثر الكلام عنها هذه الايام سوى مواد كيماوية حيوية صغيرة الجرم جدا كبيرة الأثر جدا . بل نزيد على ذلك ونقول أن الكيماوى هو أقدر الناس على المعجزات . فان العالم الامريكى كريل استطاع قبل أشهر أن يأخذ مادة بروتينية ويعقمها بالنار ثم استطاع مع ذلك أن يجعلها تمثل الاوكسجين وتفرز ثانى أكسيد الكربون أى أنه جعلها تسلك سلوك الجسم الحى . بل تعود هى نفسها جسما حياً له أهم صفات الحى وهو التمثيل والافراز . بل أنه يقول أن هذه المادة البروتينية قد شرعت بعد النمو فى الانقسام كأنها تتكاثر على طريقة الميكروبات . وهذه المعجزة تدلنا على عصا السحر التى يعمل بها الكيماويون المحدثون والتى لم يحلم بها أسلافهم القدماء الذين أفنوا أعمارهم فى البحث عن أكسير الحياة . واذا كان هناك أمل فى انتصار الطب عل الأمراض فهذا الأمل معلق بنجاحه فى استخدام الكيمياء

والكيمياء الزراعية لا تكفيها كلية واحدة . فان للتربة كما للنبات كيمياء . وكذلك الحال فى المستخرجات الزراعية كالاجبان والصلصات والمربيات والطرق التى تستعمل لحفظ اللحوم وفى تربية الدجاج والماشية . فان كل هذا يحتاج الى الكيمياء . ويجب ألا ننسى أن أعظم إنتصار للكيمياء كان فى استخراج الاسمدة الزراعية من الجو . وفى انجلترا كلية جامعية يقتصر الدرس فيها على اللبن ومشتقاته . وهذا الدرس لا يتجاوز الابحاث الكيماوية للبن

أما الـكيمياء الصناعية فنظن أن بعض قرائنا قد سئموا الحاحنا فى شرح أهميتها وكيف لا نلح على ذلك ونحن نعتقد أنها سوف تقضى على زراعة القطن من العالم كما قضت على زراعة النيل الهندى بل هى ربما تقضى أيضا على زراعة القصب وتـكفى الناس سكراً من الخشب . وليس فى الدنيا الآن صناعة إلا وتتصل بها الـكيمياء . وأنت الآن أيها القارىء حين تشرب الماء المثلج أو تمسح وجهك بمنديل الريون او تأكل السردين أو تغسل يديك بالصابون أو تفرش غرفتك بالمشمع أو تمثل الصراصير التى تؤذيك بسم ما أو تعقم الجرح الذى يصيبك أو تـكتب الخطاب بالمداد الاسود تحتاج فى كل هذه الاشياء الى الـكيمياء الصناعية هذه الـكيمياء التى نلبسها ونشربها ونأكلها ونسير عليها وتحيط بنا فى كل مكان

وقد قلت ذات مرة أنه إذا كان لا بد من التفكير فى إيجاد لون من الفاشية ينتظم الشباب بدعوة تتجاوز الحاضر وتسمو الى المستقبل فان هذه الفاشية يجب أن تقوم على البراعة فى فرع من فروع الـكيمياء الصناعية

أما كيمياء الحرب فتحتاج هى الأخرى الى كلية جامعية لأن درس الغازات والمواد المتفجرة قد يفصل فى المستقبل بين الحياة والموت لأى أمة . وقد يـكون نجاح كريل الذى أشرت اليه فى إيجاد خلية حية من مواد بروتينية معقدة من الـكماليات المعجزات التى يجب ألا تشغلنا كثيرا ولـكن ماذا نقول فى غازات تصب علينا فى القاهرة فى إحدى الليالى المشئومة المظلمة من خمسمائة طائرة ايطالية وتخنقنا قبل أن يدركنا الصباح ؟ أنه لا مفر لنا من درس الـكيمياء الحربيه فى عهد استقلالنا

الـكيمياء هى العلم الذى يغمر حياتنا . واللفظة نفسها مصرية الاصل فرعونية البناء ، لاننا نحن الذين اخترعنا هذا العلم وأخذه عنا اليونانيون وأسموه العلم المصرى أى كيمى التى تعنى فى اللغة القبطية المصرية « مصر »

اللبن وكلية اسيوط الامريكية

حدث فى الاسبوع الماضى أن وفداً من المشتغلين بالمسائل الاجتماعيـة فى إنجلترا قابل وزير الصحة وطلب اليه أن يبذل جهده لتوفير اللبن للحوامل والمرضعات

والعناية باللبن وتوفيره فى إنجلترا لاتقل عن العناية بالاسطول الانجليزى فان الحكومة تعقد الاتفاقات بينها وبين تجار اللبن ومنتجيه لكى يباع بأخفض الاثمان لقاء اعانة تؤديها هى لهم. واللبن يوزع على التلاميذ فى المدارس بالمجان أو باثمان اسمية . وذلك لما أقرته الابحاث الحديثة عن قيمة اللبن الغذائية فى نمو الصبيان وصيانة أجسامهم من الأمراض . فالعناية بتوفير اللبن هى فى الحقيقة عناية برجولة الأمة ولها من هذه الناحية قيمتها الحربية كما للاسطول البريطانى

وقد ذكرنى خبر مقابلة هذا الوفد بزيارة قمت بها قبل سنوات لكلية أسيوط الأمريكية . فان هذه الكلية لا تختلف من الجامعة الامريكية فى القاهرة من حيث الابتكار والتجديد . فقد وجدت أن اللبن الذى يباع فى أسيوط سيء وأن الابقار والجواميس لاتدر كثيراً . فاستقدمت من أمريكا وانجلترا بقراً جرزيا من تلك السلالات التى عرفت بوفرة اللبن . وقد القحت بعض الابقار المصرية بعجول جرزية لكى تورثهن الصفات الجرزية فى اللبن . كما انها أيضاً تخيرت بعض الجواميس . وبالكلية الآن

٢ ثوران جرزيان

١٥ بقرة جرزية

٢٠ بقرة خلاسية أى جرزية مصرية

٧ جاموسات

٤٤ رأساً غير العجول

وأحسن الأبقار الجرزية تدر فى اليوم خمسين رطلا من اللبن معدل الزبدة فيه ٦ فى المائة وأحسن الجواميس تدر ٣٨ رطلا معدل الزبدة فيه ٩ فى المائة . وقد استطاعت الكلية أن تزود سكان أسيوط باحسن اللبن الذى تبيعه بسعر قرش للرطل . وهى تخرج من مزرعتها نحو خمسماية رطل فى فى الشتاء وثلاثمائة فى الصيف . ونحن سكان القاهرة لانحصل على مثل هذا اللبن بل يجب أن نقنع بما يقاربه أو يشبهه من ذلك المزيج المعروف الذى يفشى بيننا التيفوئيد ويجعل صغارنا الرضع ينشأون على أساس من الكساح لايتركهم مدى حياتهم

وليت فى مصر ساحراً يتولى العقول المـدبرة فى وزارة المعارف فيحيلها من النظريات الى العمليات . إذ هو لو نجح فى ذلك لوجدناهم يتحدثون عن اللبن وقيمته فى تنمية الذكاء فى التلاميذ وطريقة تدبيره لهم . وكنا عندئذ نجد منهم اهتماما بلفظة جرزى أى العجل الجرزى والبقرة الجرزية أكبر من اهتمامهم بلفظة أرزيز أو عنقاش التى يؤلفها المجمع اللغوى بحساب مائة جنيه لكل لفظة. ويجب أن نقول أن الكلية الامريكية باهتمامها بالابقار الجرزية وتوفيرها اللبن قد وفرت الصحة لسكان أسيوط وخاصة للاطفال والصبيان مع انها لم تنفق فى مدى العشر السنين أو العشرين السنة الماضية ما أنفقه هذا المجمع اللغوى فى ثلاثة أعوام فقط

وقد تناولنا وزارة المعارف بالنقد هنا لأن كلية أسيوط معهد تعليمى . وهى التى تقوم بمهمة توفير اللبن وتوزيعه . لانها وجدت البيئة المحيطة تطالبها بذلك . ولكن لنا وزارة للصحة وأخرى للزراعة وكلتاهما جديرة بالعناية بهذا الموضوع قبل وزارة المعارف . بل الواقع أن وزارة المعارف يجب أن تكون مستهلكة فقط أى عليها — عندما نصير أمة متمدنة — أن توزع اللبن بالمجان على التلاميذ . أما الانتاج فيجب أن تقوم وزارتا الصحة والزراعة به

وليس فى الدنيا قطر يجب أن يتوافر فيه اللبن مثل مصر . فان الفلاح لا يعد نفسه ذا كرامة إلا إذا كانت له جاموسة . ولكن الجواميس فى مصر سلالات مختلفة من حيث الادرار . وكان يمكن وزارة الصحة أن تتخير السلالات الحسنة وتوزع الفحول منها للتلقيح . ومع أن الجاموس أقل أدراراً من الابقار الجرزية فان الفلاح يؤثره لوفرة ما فى لبنه من الزبدة

وقد اقترحنا ذات مرة اقتراحاً على وزارة الزراعة عن أفضل الطرق لتعميم حركة التعاون بين الفلاحين أن نجعل أساس هذه الحركة التأمين على الماشية بحيث إذا ماتت الجاموسة أو البقرة تشترى جمعية التعاون ماشية أخرى لصاحبها . وتقوم بمثل ذلك عندما تسن الماشية أو تعقم أو نحو ذلك . فان هذا التأمين يجعل الفلاحين يقبلون على جمعيات التعاون كما يجعلهم يكثرون من انتاج اللبن وفى كثرة اللبن من الفوائد ما يزيد على ما نجنيه من مؤسسات عدة تنفق عليها الاموال دون أن تجنى بها فائدة .

الصحف وفضائح الحب والزواج

قرأنا هـذا الخبر التالى :

« لاحظت وزارة الداخلية أن دأب بعض الجرائد والمجلات الأسبوعية فى نشر حوادث الحب والزواج والفضائح الناجمة عنها قد يؤثر تأثيراً سيئاً فى الأخلاق وقد يكون له تأثير فى النشء فيقلدونه فتنحط بذلك أخلاقهم وتسوء حالهم فأصدرت أمراً الى المحافظات والمديريات بالتنبيه على أقسام البوليس والمراكز بالعمل على عدم تسرب أنباء هـذه الحوادث الى الجرائد والمجلات

« وبما أن المحاكم الشرعية والأهلية من المصادر التى تغذى هـذه اصحف بأنباء هـذه الحوادث اتصل بنا أن الوزارة ستكتب الى وزارة الحقانية تطلب اليها معونتها فى ذلك بشتى الوسائل وبقدر الامكان »

هذا هو الخبر الذى قرأناه ونحن نرجو أن ينفذ وأن نرى اليوم القريب الذى تخلو فيه البلاد من جريدة او مجلة تشرح الفضائح القذرة عن الحب والزواج ويمكن ان نؤيد الحكومة فى تحقيق هذا الغرض بان نقول ان الحكومة البريطانية قد سنت قانوناً لمنع نشر التحقيقات التى تقوم بها المحاكم فى جميع قضايا الزواج والطلاق. فان التحقيقات علنية ولكن لا يجوز لجريدة أو مجلة أن تنقلها وتذيعها. وقد كانت هذه التحقيقات مادة لا تفنى لبعض الصحف المنحطة التى كانت تنقل محاضر كاملة تحتوى على تفاصيل قذرة عن العلاقات الزوجية أو الغرامية : لماذا تطلب الزوجة ترك زوجها ؟ وماذا قال لها عندما طلبت منه ألا يخاطب هذه الفتاة ؟ وما هو نص الخطاب الذى أرسلته هذه الفتاة اليه ! ومتى قبلها وأمام من ؟ ولماذا يخلف هذا الخاطب وعده؟ وما هى الادلة على أنه كان جاداً فى خطبته وما هى الهدايا التى قدمها لخطيبته الخ

ومثل هذه التفاصيل مع الصور المختارة فى المواقف الخاصة كانت تجذب العدد الكبير من القراء وتؤذيهم فى أخلاقهم بقوة المحاكاة ووسوسة الايحاء . وقد اتبعت مجلاتنا وجرائدنا هذه

التفاصيل وصارت تعنى بها وبما يلابسها من الموضوعات التى تستهوى صغار العقول من الفتيات والشبان وراجت لهذا السبب كثيرا . فاذا قلبت صفحاتها وجدتها حافلة بمثل هذه الموضوعات . ومن أعجب ماعرفناه أن السيدات والفتيات هن أعظم من يشترى هذه المجلات . بل لقد أبلغنا أحد الباعة أنه يقذف بهذه المجلة من نافذة المطبخ حتى تجدها السيدة أو الفتاة وهى بعيدة عن رقابة رب البيت الذى يعارض فى دخولها فهى إذن من المهربات فى بضاعة الاخلاق

وليس شك فى أن قلة عنايتنا بتربية الفتاة هو السبب لقراءة هذا السخف أو للانغماس فيه . فان فى كل منا رغبة غير مقدسة للوقوف على مثل هذه الأخبار . ولكننا نقنع من هذه الفضائح بالقليل ولانحب أن نقضى نهارنا فى تلاوة الفضيحة بعد الفضيحة . وذلك لأن أذهاننا قد نالت من التربية والثقافة مايبعث فيها الاهتمام بشبكة من الموضوعات . ولكن نساءنا للأسف لم ينلن مثل هذه التربية بل حتى حديثهن فى معظم الأحيان لايتجاوز هذه الشئون البيولوجية للآدميين : هذه الفتاة التى تزوجت أو تلك الاخرى التى لم تتزوج . وهذه التى حملت وتلك التى ولدت . وثالثة قد انفصلت من زوجها ورابعة عقيمة قد أجريت لها العمليات الجراحية فلم تحمل وأخرى وآخر . والكلام كله يدور على الشئون البيولوجية كأنهن مغرمات بعلم الحياة كما يتبين هذا العلم فى المعاملات الآدمية بين الجنسين

ولسنا نشك فى أن الحكومة تحسن اذا هى استطاعت منع الصحف — جرائد ومجلات — من نشر التفاصيل التى تتعلق بالفضائح الزوجية والغرامية . ولكن هذه الاوامر الادارية قلما تنفذ . وظننا أنه يجب أن نسن قانونا يمنع الصحف من النشر كما فعلت الحكومة البريطانية . وهذا مع العلم بأن السيدة أو الفتاة الانجليزية أقدر من سيداتنا وفتياتنا على التمييز وأثقف منهن وميدان اهتمامهن فى الجريدة أو المجلة أوسع . ولذلك لايخشى عليهن كثيرا اذا هن استلمسن فى بعض فراغهن لهذه الرغبة غير المقدسة فى الوقوف على فضائح الناس . اذ سرعان مايبعثهن اهتمامهن بشئون أخرى على ترك هذه الفضائح . ولكن عامة نسائنا وفتياتنا لسن كذلك . ومن هنا خطر هذه الفضائح عليهن اذ هن يعتقدن أن توالى هذه الحوادث فى الجرائد أو المجلات يدل على أنها

مألوفة ليس فيها من عيب أو عار . وهنا الخطر . وهنا الضرورة التى تبعثنا على مطالبة الحكومة بسن قانون لمنع نشرها كما فعلت الحكومة البريطانية

نحن وتحريم الخمور

من الحقائق الفسيولوجية أن جسم الانسان لا يخلو من مقدار من الكئول سواء أكان صاحبه يشرب الخمر أم لا يشربها . وبدهى أن الكئول ينشأ من التخمر الذى يلازم استحالة الطعام منذ أن نتناوله بالمضغ إلى أن نتخلص منه . ولذلك فان الكارهين للخمر يجب أن يعرفوا أنهم مهما فعلوا فان فى أجسامهم شيئا منها

ونحب هنا أن نلفت النظر إلى دعوى يزعم قائلوها أن الخمر تودى بالصحة . فانهم هنا يعنون أن الادمان يفعل ذلك . وهذا صحيح لا غبار عليه . ولكن الادمان فى الطعام يودى بالصحة أيضا والاسقام التى تنشأ فى مصر من إدمان الطعام تزيد ألف ضعف على الأسقام التى تنشأ من إدمان الخمر فازاء كل رجل قد فقد صحته من الخمر نجد بكل سهولة ألف رجل قد فقد صحته من كثرة الطعام بالتشحم وما يعقبه من الداء السكرى أو زيادة الضغط أو غير ذلك

وقد مضى على مصر أكثر من مائة وخمسين سنة والخمور مباحة فيها . فلم تؤد هذه الاباحة إلى إقبال الجمهور عليها لأننا بمزاجنا المصرى معتدلون . وليس لهذا الاعتدال علاقة بالمناخ الحار كما يظن لأول وهلة . لأن الخمر تفعل أفاعيلها السيئة بين الزنوج فى وسط أفريقيا حين تباح . وليس هناك أقل دليل على أن إقبال الامة يزداد نحو الخمور

ومن غرائب الحوادث ان الوقت الذى كنا نخشى فيه على صحة الامة وكان لنا الحق فى هذه الخشية كان أيام تقييد بيع الخمور للجمهور أيام الحرب الكبرى وبعدها بقليل . فان الجمهور عند ما منع من الخمور أقبل إقبالا مرعبا نحو المخدرات القاتلة مثل الهيروئين والكوكئين ونحوهما . وعندئذ عرفت المستشفيات للامراض العقلية بضع مئات من المصريين . ونحن نخشى أن يؤدى

مشروع القانون الذى يراد به تقييد بيع الخمور الى مثل الحالة التى كنا فيها مدة الحرب الكبرى وعقبها .

وإذا تركنا الوجهتين الصحية والاخلاقية ونظرنا إلى الوجهة الاقتصادية فقط فاننا لا نستطيع الا أن نعترف بأن مصر فى أزمتها بل أزمتها الزراعية يجب أن تفكر فى تشجيع غرس الكروم . ولكن الكروم ليست كبيرة القيمة اذا كان المقصود منها بيع العنب فاكهة . اذ هو عندئذ بمثابة المادة الخامة الرخيصة . ولكنه لو أحيل خمرا مستقطرة أم مخمرة لأمكننا أن نبيعه بملايين الجنيهات ليس فى مصر وحدها بل فى الأقطار الاجنبية . والخمور مثل الأجبان تندمغ بالمناخ والبيئة . فمهما جهدنا أنفسنا لا يمكننا ان نخرج فى مصر جبن روكفور ولا الكونياك الفرنسى ولكن ما أدرانا أن تكون لمناخنا ميزات لم تعرف حتى الآن فى اخراج خمور جديدة ؟

ونحن نشقى الآن بالقطن الذى لا يكاد بأثمانه الحاضرة يعود على الفلاح بسبعة أو ثمانية جنيهات للفدان . ولكنا لا نبالغ اذا قلنا أن فدان الكروم اذا أحيل ثمره الى خمور لما قل ريعه السنوى عن مئة جنيه بل مائتى جنيه للفدان الواحد . وليست جميع الخمور مما يصعب صنعها أو يحتاج إلى المصانع الكبيرة كما يعرف جميع الذين أقاموا فى القرى الفرنسية حيث يصنع الفلاح نبيذه بنفسه لكى يكفيه طول العام . وهذه مسألة لا يمكن الحكومة نفسها أن تهملها اذا هى وثقت من فوائدها الاقتصادية التى لا يستهان بها

وقد قرأنا خلاصة لمشروع القانون الجديد تقول بمنع بيع الخمور بعد الساعة العاشرة من المساء الا فى الفنادق أو الأندية . ومنع بيعها لمن كان دون الثامنة عشر . وهذا المنع الثانى حسن . ولكن تعيين الساعة العاشرة من المساء لمنع بيع الخمور وإجازة بيعها للفنادق والاندية لن يجدى شيئا الا فى اضاعة الضريبة التى تجبيها وزارة المالية من الحانات التى سيقل عددها لقلة كسبها . فان الحانة تؤدى ضريبة باهظة والنادى لا يؤدى شيئا

ثم بعد ذلك يجب أن نذكر أن بلادنا تنتظر خيرا كثيرا من حركة السياحة . وليس فى الدنيا كلها قطر غنى بآثاره الناطقة وهو مع ذلك ملتقى الشرق والغرب يمتاز بشمس مشرقة طول الشتاء مثل بلادنا . وكان يجب أن نربح من موسم السياحة مثلما نربح من القطن بل أكثر ولكن

التفكير الصوفى الشرقى الذى نشأنا يجعلنا نفكر فى أشياء خيالية بدلا من أن نولى هذه المسألة ما تستحق من عناية كتعليم شبابنا تأسيس المطاعم والفنادق وتنظيم رحلات التنزه وإنشاء الملاهى التى تجذب السائحين. ويجب ألا تفوتنا مسألة الموسم السياحى عندما نفكر فى تقييد بيع الخمور . فان خبرا صغيرا فى احدى الجرائد فى انجلترا أو امريكا عن منع بيع الخمور فى مصر بعد ساعة معينة سيمنع عنا مئات السائحين الذين يفيدون مصر بعشرات الالوف من الجنيهات .

مساعدة الصحافة

ذكرت بعض الجرائد أن الحكومة قررت انشاء لجنة للنظر فى ترقية الصحف . والخبر حسن. ولكننا نشك فى أن أحدا من الصحفيين سينظر اليه بعين الارتياح التام . لان الاختبارات السابقة تدل على أنه مامن امتياز منح للصحفيين وانتفع به عدد منهم الا واستضر به عدد آخر ، ولو طلب رأينا فى هذا الموضوع لطلبنا الى الحكومة أن تحرم الصحف جميعها امتيازاتها الحاضرة حتى تعود كلها سواء فى الحرمان الذى يجعلها تعتمد على نفسها

ذلك أن هذه الامتيازات لم تمنح قط بالسواء . فقد يقال أن الحكومة مثلا تمنح التذاكر المجانية أو تذاكر نصف الاجرة للصحفين . ونحن نؤكد باختباراتنا الماضية أن هذا المنح لم يستو فيه جميع الصحفيين . وقد يقال أن الصحف تنال ربحا عظيما من الاعلانات الحكومية وهذا صحيح ولكن الربح يتفاوت من أربعة جنيهات فى الشهر الى مائتى جنيه فى الشهر باختلاف الصحيفة . وبدهى أن ذلك الذى لاينال سوى أربعة جنيهات يرى من مصلحته أن يلغى هذا الامتياز الغاء تاما ، كما أن ذلك الصحفى الذى لايمكنه أن يحصل الا على تذكرة سفر بنصف الاجرة لا يرتاح الى رؤية غيره وهو يحصل عليها بالمجان . وهو يرى أن الغاء هذا الامتياز خير من بقائه

وكذلك الشأن فى امتيازات أخرى عديدة قد لايكون من اللائق أن تنشر على صفحات الجرائد فان أصحاب الصحف أو محرريها لا يجدون أنهم يستوون فيها ونضرب مثلا بذلك وزارة المعارف التى تشترك فى إحدى المجلات فتؤدى لها كل عام أربعمائة أو خمسمائة جنيه ثم ترفض الاشتراك فى مجلة أخرى . فاذا سألت عن السبب قيل أن شيخا من شيوخ هذه الوزارة أو شيخ الأزهر لا يرى فائدة

للتلاميذ فى قراءة هذه المجلة . وبدهى أن صاحب المجلة المحروم من اشتراك هذه الوزارة يرى أنه خير للمجلات جميعها أن تستوى فى الحرمان اذا لم يكن ممكنا أن تستوى فى الامتياز

بل نزيد على ذلك ونقول أن خفض المكوس الجمركية لم يخدم الجرائد أقل خدمة وانما هو خدم أصحاب الاعلانات فان صاحب الجريدة يشترى الآن الورق رخيصا لا لكى ينفق من ناحية أخرى فى ترقية جريدته باختيار أحسن المحررين وأفضل المخبرين بل لكى يعرض صفحاتها الكبيرة على أصحاب الاعلانات . ولو كان الورق غاليا أى لو كان الصحفى غير ممتاز بالخفض الجمركى لنقصت صفحات جرائدنا وزادت العناية بالتلخيص والاختيار .

ونحن أحد الصحفيين المغبونين فى هذه الامتيازات ونرى اننا ننتفع بالغاء جميع هذه الامتيازات لاننا عندئذ ننزل على قدم المساواة مع من يزاحمنا فى هذه الصناعة . ولكننا الان نرى أنفسنا فى صناعة شاقة يمتاز فيها غيرنا بامتيازات يعتقد الجمهور أننا جميعا سواء فيها وهو يطالبنا بان نخرج مجلاتنا أو جرائدنا على النحو الذى يخرج زملاؤنا مجلاته وجرائده مع أننا — فى الواقع — لا نمتاز بامتيازاته .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

Widener Library
3 2044 114 055 171

al-Majallah al-jadidah